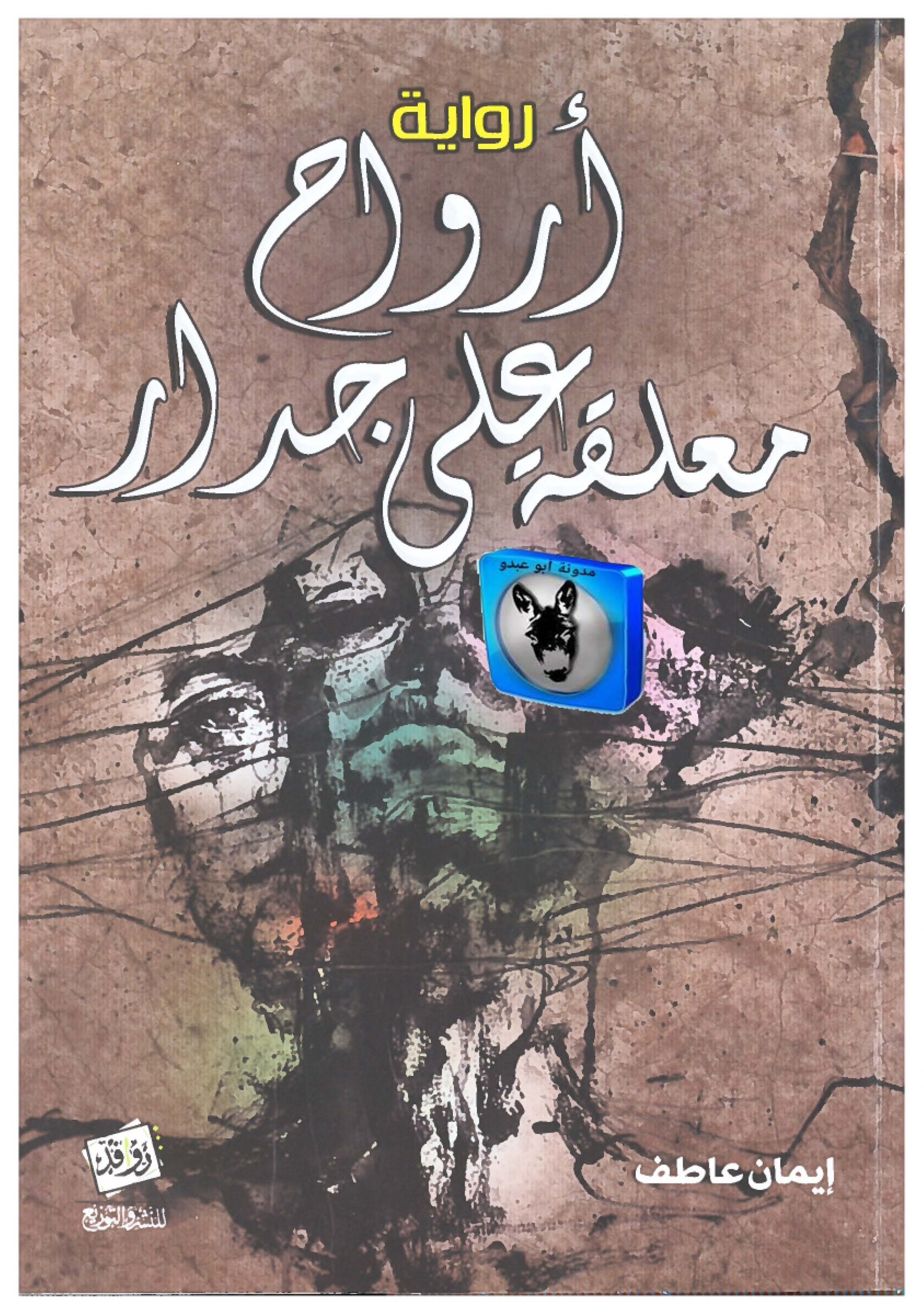


رواية
أرواح معلقة على جدار
مدونة ابو عبدو
رواقد
للنشر والتوزيع
إيمان عاطف

أرواح معلقة على جدار

عاطف، إيمان

أرواح معلقة على جدار/ إيمان عاطف

روافد للنشر والتوزيع. ٢٠١٤ ط ١، القاهرة

١٧١ ص ؛ ٢١ سم

١ -رواية

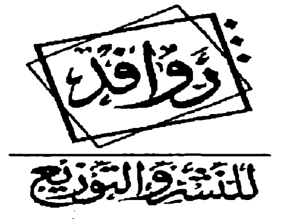
٢ -العنوان

أ – المؤلف

رقم التصنيف: ٨١٣ .٠٠٨

رقم الإيداع: ٢٣٣٧٦ /2013

الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 751 -020- 2



روافد للنشر والتوزيع

تليفون +2 01222235071

rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

تصميم الغلاف: أحمد القمحاوي

التعليق الخارجي: محمد الطاهر مناع

مراجعة لغوية: جرجس صبحي

الإخراج الداخلي: أحمد عبد المقصود

أرواح معلقة على جدار

عن الجداريات التي يرسمها المغترب

في زنزانة الوطن الغريب



إيمان عاطف

الإهداء

كيف نَدفع عقارب الساعة إلى الخلف

إليّ..

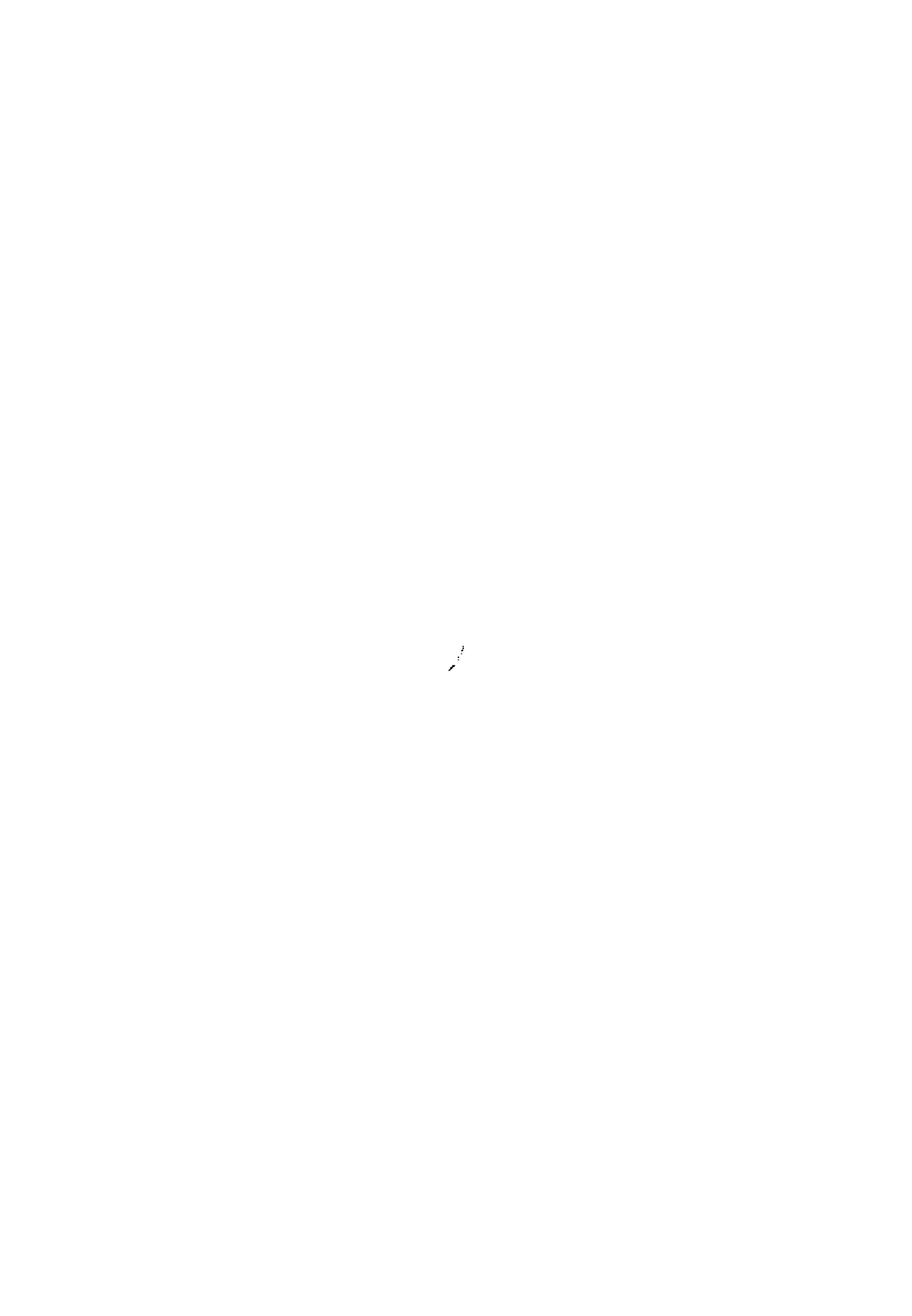
فإن الحياة مجاميع تساوي صفر.

إلى أبي وأمي لأنهما كل شيء.

إلى الحبيبة أختي: آية عاطف لأنك تحملين أوزاري.

إلى إدوارد الخياط ونصر حامد أبو زيد.

إلى كفر الدوار... وإلى الصامدات في الميدان يحملن خيبات الأمل.



أنبذ الهجوع بعد طلة الصبح رغم عشقي القديم لأنفاسه.

في صدري كلمات طاعنة، تسبقني بألف عام...

مضيت بعمري حتى الحافة، لم أرَ غير الغيوم...

خلفي الضواري تهم... وخلفها القوارض تنظر. والنسور لعلها في الغيوم تحوم...

أنتصب...

أختار ما بين مضغةٍ متسرسبةٍ في غائطٍ والسقوط الجليل حتى العظام المنتثرة أسفل المنحدر...

ما بين عزوف المجد عني في رمقه الأخير وانطلاقة مع المسير العائد...

أحبك.. أحبك

وعندما تزورني في نهاري وأحلامي أنسى الزنزانة الدائرية التي تطبق على عالمي بين جدرانها وتتلاشى الأغلال الثقيلة المعلقة على تلك الجدران...

هنا باب السرمد بزنزانتي مفتوحٌ ينبثق منه النور الباهت. ويطل على طريق مُلطّخ بأوراق الزهر.. إلى الأكاليل التي خاطتها العجائز.. ونحو زغاريد الشابات الراضيات معصوبات الأعين...

وأنت تعرفني حبيبي، أدير ظهري بالسذاجة التي عهدتها فيَّ، لأبحث عن كوة النور التي واعدتني الأحلام بها. تخترق الأزلام المرشوقة عظام ظهري حتى صدري.. مُثقل ذلك الجسد بالطعنات، يورق في جنباته تنهيدات حالمات نذرن الأماسي إليك.. ينتظرن جذاء أنفاسك لتشفي جراح الظهر والصدر...

أغض البصر عن بابٍ من ورائك مغلق، وقيود جاثية عند قدميك ككلبٍ أمين.. وظلام حواليك لا يقشع نورك ولا يطلقه...

حبيبي.. سأترك خطابي إليك في أمانة رياح الخريف العاتية التي تصفع نافذتي...

سأرمي خطابي إليك كما عاهدتك من النافذة ثم أغلق زجاجها وأنام.

إليك.. زينب

في الشقة الجديدة التي أتقاسمها مع ريم.. أحب أن أقف في الشرفة في ليالي الخميس والجمعة.. لأن بالقرب من بنايتنا قاعة أفراح.. وعندما تقام الأفراح في هاتين الليلتين.. وعند خروج العروسين من القاعة.. تنطلق المفرقعات النارية في السماء.. وكنت أحب أن أراقبها وهي تصرخ بينما ترتفع في الفضاء. تخطفني حتى أعلى نقطة.. ثم تتولد الانفجارات وتنتثر من جوفها سلسلة من شظايا الضوء المتلاحق. أنفاس متفجرة من صدر كائن وُلِد ومات جليلًا وساميًا، يفتن الروحَ كما يفتن العينَ ويُرغِم الأعناقَ على الانتصاب.. هكذا كنت أتمنى لعمري أن يكون قصيرًا وجليلًا كالثريا المضيئة في السماء.. أن أموت وكل الأحباء والخلان لم يزالوا أحياء. فيلتفون حول قبري باكين. ويستدعي كلٌّ منهم ذكرى متفردة بالبهجة عني. مثلا، ستحكي أمي لجمع السيدات المتحلق حولها المتَّشح بالسواد المتجلِّي في غرفة الصالون الذي اهترى قماشه وانخفض إسفنجه.. ستحكي أشياء مجيدةً عني.. عن انزلاقي عبر مشيمتها.. عن وجلٍ كان يتملَّكني عندما تحملني فوق كتفيها بينما تغسل الصحون في حوض المطبخ.. عن انبهاري المتجدد بالجونلات المكشكشة.. وستفخر للمرة الأولى باستقلالي عن العائلة وإقامتي في القاهرة وستقول: "فتاتي بمائة رجل" ، وستُخرِج شهادتي الجامعية، وتدور عليهم صوري بجميع الأعمار.. حتى إذا ما تفرق الجمعُ ومضى كلٌّ إلى مخدعه، ستتمنى كل

امرأة لو أن ابنتها تصير عندما تكبر مثلي.. وستهنأ أمي بانحسار اللوم عنها، باحتضار قلقها من أجلي.

أتأمل المفرقعات وهي تدير مهرجانًا ضاجًّا في السماء وأتأمل العيون المتوهجة، أتخيل نفسي واقفةً هناك، مرتديةً ذلك الفستان الأبيض، أشعل إحدى الألعاب النارية لتُحدِث من أجلي عشرات من الثريات المتوهجة في السماء...

- ١ -

أرجوزة في مدار محرابكِ يا مريم
تضيء الشمعَ، تزيل ألما
وحور باسمات تطفن بدربكِ
ويأتي الفجر لينحر ندما

كان حنا الصديق يغني كعاداته عندما يتمشى مغلفًا يديه بجيبي معطفه الرمادي ويحمل على ظهره حقيبة اللاب توب الثقيلة. كنت على يمينه أساوي خطوتي بمقاس خطوته، وعلى يميني ريم بنت الأكابر. تحاول الحفاظ على توازن بين مجاراة سرعتنا وإسناد الهاتف على أذنها والجدال مع حبيبها الجديد الذي لم أجتهد لحفظ اسمه؛ لأنني كلما حفظت اسم رفيقها تبدله بآخر. وضعت يدي في مدفأة جيب حنا الأيمن فتوقف فجأة وأخرج يده اليسرى من جيبه الأيسر وفرك جبيني بأصابعه وقبَّلني عليه وأشار إلى المنزل الذي توقفنا أمامه قائلًا: "هذا منزل السيدة "نفيسة البيضا" ويتكون من حوش كبير في منتصف المنزل على شكل صحن دائري وتطل عليه حجرتان للاستقبال إحداهما شمالية والأخرى جنوبية وتسبق كلتا الحجرتين

شرفة تنفتح على الحوش. ولتفادي آشعة الشمس يسكن أهل البيت الحجرة أثناء النهار والشرفة وقت انحسار الشمس ثم الصحن إذا سجا الليل. استنفار حنًّا لعضلات جسده كلها وهو يشرح -وقد قطب حاجبيه في جديةٍ بحتة- الأقسام التي يتكوَّن منها المنزل أشعل متفجرات الضحك المختزنة بداخلي فتوقف حنا ونظر إليَّ معاتبًا، مؤكدًا إليَّ رغبته في إكمال خطبته. ولكن ريم قاطعت مسير نظراته:

-"ولكن بحسب علمي يا حنًّا مع تقديري لوصفك العلمي للمنزل المصري في عهد الفاطميين أن شارع المعز كان شارعًا تجاريًّا".

_ "لا، انظري هذا سبيل نفيسة البيضا". وأشار إلى الحوض أمام البناية. ثم تابع حديثه: "إذن هذا هو منزل نفيسة".

_ ربما هو وكالة نفيسة، أو تكية نفيسة ولعله مدرسة نفيسة.

_ حسنًا حسنًا، صديقة صديقتي المُفسِدة للبهجة.

_ تخططان لهذه النزهة منذ شهر، بعد ذلك اللقاء السخيف الذي قابلت فيه أحمد على مركب النايل كروز. كأنكما توافقتما على موعد لتتعاركا الآن كالديوك.. ارحموني.

أعاد حنا يدي بعد أن قبَّلها داخل جيب المعطف. أنا غير معتادة على شحنة التدليل المفرط الذي يبثها حنا الليلة. فبالرغم من أنها

تبهجني فإنها لا تريحني بصورةٍ مطلقةٍ لا تمسها شائبةٌ من خجل. ولكن ما لبثت ذرات الامتنان تجاه تدخلات حنَّا الناجحة لمواساتي أن تترسَّب لتصقل صورة الخِلِّ الوفي داخل إطار من لحم القلب وزركشة من دمائه.

ليس أمرًا هينا أن تعمر ليالي نضب النوم بها بالحركة والإثارة. فإجهاد الليالي السابقة يمتصُّ النشاط تحت جلدك. وعليك أن تستفز بؤر الإنارة المدفونة بأعماقك والتي تبقيك متيقظًا طوال الليل وتدنس نومك المستحيل بالكوابيس المتوحشة حتى تنفد. الحقيقة أن اجتماعي بريم وحنَّا في ذلك الوقت المتأخر من الليل وتحتَ إضاءة المعز لدين الله الفاطمي الخافتة أحالني لمنطقة أمانٍ غير مألوفة، مهيمنة وتوحي إليَّ باستسلام ذهني لغفوةٍ.

أكملنا مسيرتنا على الأحجار الصغيرة الرمادية الطاعنة في القدم التي رصفت الشارع حتى غرزت مسامير الإنهاك في كعب قدمي. تركت حنَّا وريم يسيران أمامي وجلست في وسط الطريق القديم فردت ساقيَّ وارتكزت بيدي على الأرض لأوازن ظهري.. كانت الأحجار جافة وباردة وملساء تجذبني نحوها فطاوعت رغبةً مُبهَمَةً في التمدُّد على ظهري وراقبت القمرَ وهو يتجول من مشربيةٍ إلى أخرى،

يضفي غرابة السحر الشرقي بضوئه على الشارع القديم. وتمنيت لو أن الزمن يتوقف...

قال حنا وكأنه يغدقني بحنانه منذ ولوج الليل ليقتص مني بكلماته في لحظة: ولكنه قروي مثلك له وجهين كما أن له روحين.. وأغلب الظن أن كليكم بحاجة قسوى. لأن تدربا ذواتكما.. كيف تستميتان من أجل أحلام الحرية وتستبقيان على قيود التقاليد والخرافات؟

تقبلت السؤال كما سُئل، بعشم. وسألته أنا أيضا: وكيف؟

كنت أعرف أن ثمة ما يريب تقرب أحمد مني، على الأرجح هو التوقيت..

مثلاً.. كان ثان لقاء لنا بالقاهرة بعدما التقينا في ساقية الصاوي للمرة الأولى، هل كان أحمد يحثني على الكتابة عن ديوانه الجديد الذي كان لتوه قد صدر في الجريدة التي كنت اشتغل بها؟

وحتى لقاءنا الأخير، هل تحمس له وقد عرف أنني بدأت العمل في برنامج (التوك شو) الذي لاقى أصداءا رنانة على مستوى الجماهير.

ورغم أنني أعارض مفهوم حنّا عن الحرية، ولا يستهويني حديثه عن الحرية المطلقة. إلا أن أفكاره عن الرجل الشرقي، أطلقت الشك فجعل يعوي داخل رأسي.. والحقيقة أنني أدركت أنها منطقية.

نظرات أحمد توشي أنه على وشك أن يأكلني.. وتعليقاته السخيفة التي يرميها عن بنطولني الجينز، ثم يضحك كأنها نكات. أهي حالة الشجن التي تأخذه عندما يتلو عليك قصائده؟ كأنه في عالمٍ آخر. كأنه سافر ثم عاد بينما يُنهي القصيدة وأود حين ذلك لو أبسط ذراعي وأضمه.

عدنا إلى حيث ركنت ريم سيارتها قريبًا من مدخل الشارع، وسألتني العودة لشقّتنا فرفضت. فسألها حنَّا: "هل ستواجها أزمةً بسبب السهر؟"

قالت: "لن أتركها على أية حال. لا أفضل أن أمكث في الشقة بمفردي إلى وقتٍ متأخر".

- إذن فلنتوجه إلى الحسين. حَضرَة ذِكر على الطريقة البرهانية ستمحو آلام تلك الصغيرة العاشقة.

وداعب حنّا ذقني ثم حاصر الوجنتين بكلتا يديه ورج وجهي وهو يقول: "أفيقي"

قرأنا الفاتحة عندما توقَّفنا أمام الجامع، وأشار حنا للصليب على وجهه عندما أنهى "ولا الضالين" في خشوع حتى أنني كدت أقلده، لكنني مسحت على وجهي ورددت آمين.

تقبل الله منك يا شيخ حنًّا.

طلبت منهما أن ينتظراني حتى أكمل صلاةً قرب ضريح الحسين في بهو السيدات.

في السجود غافلتني دمعات مشوبة بالوجل والارتجال بالرحيل عني واقتعدن ضفاف أسوار الضريح الخشبية. وشكين إليه هو الغائب. شكين التاريخ الذي نعرف عنه عشرة آلاف من الأعوام.. توأد المولدة وترق السيدة ويقتل المسلح الأعزل الذي ما هو رافع يده ليقتل. شكَيْنَه الغربة في قرب الأحبة. شكَيْنَه الشكَّ بين أصابع اليد الواحدة.

* * *

تحلق الجمعُ تضمه حيطان الجامع تتخلَّله الأعمدة العاجية اللون. الأقدام على السجاد الأخضر. والرؤس المترنحة تحت القبة،

وتسبح الأرواحُ بعيدةً عن الأروقة.. بعيدةً عن الأزمنة.. متجاوزةً خطوط الأفق ومدار القمر.

اصطدام الوجنتين بالهواء المُسكِر.. ذهابًا وإيابًا يدوِّخني. أذوب مع جيراني في بحرٍ أزرق يرسم الأفقَ ويلوِّن السماء بذاته الصافية. الغيوم جميعها انقشعت. وأكملت أصوات نشيدها، تردِّد: "الله حي.. الله حي"، وتتشابك فتسمعها النجوم التي لتوِّها سطعت فترشدنا الطريق. الطريق عند الله.. الله الحي.

مولانا الحسين.. يشهد إنا نسلِّم على الحبيب.

أنوارٌ تبثُّ السَّكينةَ في جسدي المصغي.

أنوارٌ تفتت اليأسَ والأسيَّة.

مع كل دقةٍ يستسلم جسدٌ يهيم.. قلبٌ يهيم.. روحٌ تهيم.. دقات لحنٍ من مقطعين والمقطع من دقَّتين كأمان طفلٍ بين ضمَّة والدين، ووهج قبلة عاشقين، وجلبة اصطدام كوكبين.

وأصداء النشيد تحوم من أُذُنٍ لأُذُنٍ، فيَسقُط كلُّ مجروحٍ خائرة قواه في بحر الدَّمع فيغتسل وينهض كما ولدته أمُّه بريئًا طاهرًا.. ذرة متوقِّدة للحياة. ذرة نكرة متماهية في ذرى رمال صحراء بلا حدود.

واحد لونها الأصفر بلا اضطراب أو تراجع يتموج بين التلال. واحد بلا جدال أو تغيُّر في الألوان والفصول. الشمس قائظة في النهار. والبرد قاتل في الليل. بلا تفاوض، الحقائق ثابتة. لن تصادف شيئًا لم تنتظره. ذرة صفراء في حضن الأصفر تحتمي من القناص الرمادي المتطور مثل علوم التكنولوجيا وأبحاث الفضاء. الأصفر البري الوقح أرداني وحفرت لي الرياحُ القبرَ العظيم لأسكن المنتهى.. منتهى السلام.

ليس هناك بعد من حجاب أخشاه. قد أمشي على مياه البحيرة المتلألئة وأتسلق النخلة العالية وأقطف النجوم وأتزوج كوكبًا منيرًا..

تهوي رأسي على الأرض. أنا ابنة الأرض. طينية المنشأ.. طينية القبر. أتقرب إليك يا سميع ورأسي مُحنَّاة بالطين.

مولانا الحسين شاهد..

تروِّعني البصقات المنثورة بمحاذاة الطرق وعلى الأرصفة وفي حضن الطريق الأسفلتي.

وتروِّعني نظراتُ الرجل الأربعيني الذي خسر شهوته لأم العيال في رهان على العمر، من وراء النظارات الزجاجية القاتمة.

وتروِّعني أورامُ بطون الأمَّهات التي تحمل الكهولة.

ويروِّعني الروثُ المثبَّت بمقدِّمة حذاء الزوجة القديمة.

ويروِّعني الدخان المتصاعد من محارق أكوام القمامة المتتابعة على الطريق الزراعي.

وتروِّعني أشواك الصبار المخلَّد على الأضرحة المسجيَّة بين الحيطان الملونة.

ويروِّعني الرذاذ المرشوش من بين أسنان أبي الهرمة وهو يُسقِط كلمات غضبه السوداء على البلاط الكهل المتآكل.

وتروِّعني اللوحات الطبيعية المتماثلة للقرى التي تلتقطها شبابيك القطار المقبل للغربة.

ويروِّعني النيلُ الذي تقيَّأ الوحشة على شاطئيه الغربي والشرقي، وشع بذرَى الحزن على سطح مياهه المُرَّة تحت شعاعين هما الشمس والقمر.

ويؤرِّقني في ليلي ما يروِّعني في نهاري، وتهدِّدني الحقائقُ القديمة التي جابهتها أمي بسلاسة تضفير شعري _ حتى بلغت التاسعة _ بسلب سلام حياتي، ولقد أخذت بنصائحها وصلَّيت الفجر قرب فراشي ومسحت باسمه على وسادتي الناعمة.

في شوارع الحسين

مررنا على حوانيت تسطع بالذهب والفضة في غيام الليل وحوانيت تفوح بشوق البخور إلى مغازلة حوريات النهر النداهات. وحوانيت تنفش ألوان المناديل كذيول قطيع طواويس في ليلة التزاوج.

إلى أن وصلنا قهوة ال(الفيشاوي). جلسنا أمام لوحةٍ لوجه إمرأةٍ مصريةٍ مائل إلى الجانب الأيمن. تربط شعرها بمنديل ذي شراشيب ملونة، عيناها واسعتان وفضيتان في حجم الحلق الدائري المعلّق بأذنها وفي لونه أيضًا. قالت ريم حين نظرت إلى اللوحة: "أبعاد الوجه غير دقيقة".

أَقبَلَ عازفُ العود يعزف لحنًا شجيًّا لبليغ حمدي مفتتحًا لأغنية أم كلثوم فات الميعاد. غنينا معه الكلمات في حماسةٍ وتوقُّد. كنت أضغط بصوتي على الكلمات كأنني أؤكد لنفسي أن الميعاد لابد أن يفوت.

انتبه الجمع حينما ظهر "الصحَّاف" بالتليفيزيون. اقتعدت الطيور الرؤوس، بينما كان يشرح معنى الكلمة التي حيَّرت الجميع. كان يقول: "إن سيدنا عمر، رضي الله عنه، كان يطلق على غزاة الروم

(علوج الروم)"، ثم قطع جملته وشرع يروي فصلًا جديدًا من انتصارات الجيش العراقي في مجابهة دبابات وطائرات العدو الأمريكي. كنت أتأمل الملامح التي تقمصها السكون والعيون المشدوهة للتلفاز مزدانة بكحل الدهشة والأفواه المكبَّلة بالوجل. أتعجب من القهوة المزدحمة التي غمرها الصمتُ منذ ظهور وزير الإعلام العراقي. انتهى المؤتمر الصحفي الذي يعقده الصحَّاف كل ليلة منذ وطأ المارينز الأرض العراقية. عندئذٍ، عصف الضجيجُ الطاولات والمقاعد، ضجيج المناقشات المتأجِّجة والخلافات المتعصبة والنكات والمزاح. تعلو كلمات فوق الكلمات لتخطف السمع وتبدأ معها مناقشات جديدة...

هتف النادل وهو يشير إلى صورة صدام، وهو يتجول بين الدبَّابات العراقية ويلوح لجنوده ولجمهورٍ صار لا يتجرَّأ على استبدال قناة الجزيرة، هتف: "ينصر دين أمه سيسقط الطغيان الأمريكي".

صرخ الشابُّ الهزيلُ وهو يعيد النظَّارةَ المنزلقة على أنفه المدبَّب إلى مكانها: "يطمعون بامتدادٍ من النيل إلى الفرات".

زعق البدين الأصلع الذي يرتدي قميصًا مُشجَّرًا فاقع الألوان ـ يلعب الطاولة مع صديقه الأصلع النحيف الذي يرتدي أيضًا قميصًا

مشجّرًا بلون فاقع آخر - بينما كان يرمي حجر الزهر قائلًا: "الأم صرّحت إن معدل ذكاء ابنها جورج بوش أقل من أن يتولى المنصب".

حتى الطاولة التي جلست عليها اجتاحتها جذوة الضجيج حينما اختلف كلٌّ من ريم وحنا على صحة رواية الصحاف عن عمر رضي الله عنه أنه قال: (علوج).

صحوت مبكرًا رغم تلك الليلة الطويلة، حامدةً وشاكرةً على الساعات الثلاث التي استغرقت خلالها في النوم بلا منغص... صباح أمس صحوت بعد أحلامٍ مريرة، واليأس الثقيل رابضٌ على صدري يكبح أنفاسي ويربط غمامةً سوداء على عينيَّ ويمنعني من مغادرة الفراش. لكن اليوم ثمة أمل يضيء الشقة التي أتقاسمها وريم حتى أنني وددتُ لو أوقظها لتشاركني بهجته قبل تلاشيها لكنني لم أفعل. وفتحت التلفاز لأشاهد النشرة بينما أتناول الشيكولاتة الساخنة التي أعشقها في برد الشتاء، لكنني لم أكد أهنأ بضوء الصبح والشيكولاتة، شاهدت الدمار يحل...

هوى العراقُ وفرَّ صدام!

لكن العراق لم يسقط بمفرده، بل سقطت في إثره العزة..

عزة الأمم الطاعنة في العمر، الفاخرة بتاريخ قديم... بات كلُّ ما خلفه البابليون والآشوريون والفراعنة حطامًا أو نفايات، بعدما زُلزِلت المعابد والتماثيل والتدوينات والكتب التي تشهد على الفكر والعلم الذي سبق العالم، ودُكَّت على الأرض دكًّا. لن تعود تلك النظرة.. نظرة الانبهار في عيون الغربي. تجحظ حبَّتا عينيه من الدهشة، تتضائل خطواته، يفغر فاهه، تخشع قسمات وجهه، تهاب شعرات جلده المنتصبة.. تلك النظرة تنقرض وتُطوَى مع صفحة التاريخ. تبقى المذلة التي تسكن العيون والدمع الذي لا يجف ليبدأ العمل ولا يقطر ليُعلَن التمرد والدعاء المنشور من مكبرات الصوت على قمم المآذن في الأحياء الثرية والفقيرة...

كل شيء كان في العالم يحتضر.. حتى الفجر كان يُهترئ في جوف الجهل، والبدر يختنق في سجن التواطؤ..

الكون الذي أخرج أثقاله للتو أدرك أن وقت الاعتراف قد حان. وحتى تعترف أنت مضطر للتجرد. ويحين وقت انكشاف المستور عنه وميعاد رفع الستار. التعري كان سيد الصورة.. تعرى كل شيء كما يولد الموجود من بطن أمه، ولكن هذه المرة قبيل الاحتضار...

مرت الأسابيع وإذا بنا نطلع على صور جديدة كل صباح. صور أبلغ من ألف كلمة كما علمتنا (أنا وريم وحنّا) مادة (الميديا) بكلية الإعلام. أحاول طرد الصور من خيالي، أتمنى لو أنني لم تمس يدي جريدة ولا خطوت مقتربة من التلفاز.. رابضة أمام عيني صورة للأبد، كانت منشورة في مجلة فرنسية نزعتها من بين يدي (حنا) وهو يجهش في البكاء.. صورة لجندي أمريكي وهو يشير بعلامة النصر ويقف بجوار طفلين عراقيين يحمل أصغرهما لوحة مكتوبة بخط اليد تقول باللغة الإنجليزية (لقد قتل الجندي الواقف بجواري والدي واغتصب أختي)، وبالطبع كان الطفل مبتسماً لأنه لا يعرف معنى المكتوب على الورقة ولا جريمة الجندي المفتخر بفحولته والواقف بجواره. كان (حنا) على يقين أن الجندي الأمريكي أراد التقاط هذه الصورة لإرسالها إلى أصدقائه في بلاده لتكون دليلاً على بطولته في ممارسة القتل والجنس...

أذكر النظرات المحتارة التي كنت أتبادلها و(حنا) عندما كنا نسمع (ريم) على مكبر اللاب توب، وهي تتحدث عبر أثير الإنترنت، عن الرسام اللاتيني العجوز الذي أقيم معرضه في رواق بالازو فينيزيا بروما الذي تسافر إليه بنت الذوات كل عام.

تحكي ريم عن اللوحات التي انبهر النقاد بها وتساءل جمهور المعرض بلهفة عن أسعارها. تستنكر ريم رغبة البعض في الإحتفاظ بلوحة تصور ثلاثة عراقيين مقيدين بالأغلال ورؤوسهم تغطيها أكياس سوداء، وقد جرى تكويمهم على شكل هرم بشرى والدم يتدفق من جراحهم. صحيح أن الفنان تعود على رسم مشاهد سفك الدماء معبرا عن الحرب الأهلية التي نشبت في وطنه كولومبيا.. وصحيح أنه يستخدم تقنية أقرب للتعبير عن البهجة في بورتريهاته الرائقة.. وصحيح أنه يصور الأجساد مكتنزة بارزة للملامح والقسمات والعضلات المصقلة مما استدعي الضحك بالنسبة لريم.. وصحيح أيضا أن اللوحات بحسب رأيها تتوهج بإثارة حسية غريبة بدا لها أن الرسام تعمدها ساخرا من ذكرياته المشينة.. إلا أنها ترفض استيعاب تلك الرغبة في تملك لوحات مستوحاه من صور مفزعة تبين رجالا معصوبي الأعين ويرتدون ملابس نسائية داخلية، رجالا ونساء يتعرضون للضرب أو تحاصرهم الكلاب المسعورة، وأجساد تنزف دما أرغمت على اتخاذ أوضاع مهينة لكرامة أي إنسان.

النظرات المحتارة كانت تسأل عن المنطق الذي يفكر به إنسان العالم الآن عندما يرى عراقيا وأمريكيا في صورة فوتغرافية واحدة بالأوضاع المماثلة؟

نظرات لا يسعها الجزم..

ماذا كانت تلك القصص تعني.. عندما تنتقل قاطعة آلاف الكيلومترات حتى أذنين؟

قصة لك.. ادخال مصباحاً فسفورياً في دبر سجين، أو إرغام معتقلين ذكور على ارتداء ألبسة نسائية داخلية أو تطويق رقاب معتقلين ذكور عراة بجنزير كلب والتقاط صور فوتوغرافية معهم... أو قصة عن عبارة «أنا مغتصب» مكتوبة على صدر سجين أجبر على اغتصاب طفل في العاشرة من عمره...

***

التعذيب المفضوح الذي صرخ مع كل زفرات الهواء كان يضغط على جرحٍ آخر يخصني وحدي. جرح من سكين عسكري أيضًا، لكنه لم يكن في قبضة متطوِّعي المارينز، بل في قبضة يد من المفترض أنها في خدمة الشعب. ولو أنني كان لي عضد.. وكنت محظوظةً بوجوده.. وساطة (ريم) وحدها أنقذتني من مصير كاد يقرب صور أبو غريب في خزيه...

ذات صبيحة قالت لي: دلو البول كان غرضه انقاذك، لو لم يدلق فوقك المخبر دلو البول واغرقك به وكساك برائحته لربما اغتصبك الضابط الوسخ أو صورك عريانة.

كنت في حوض الاستحمام. عارية وحاسرة رأسي. تفركني ريم للمرة الثالثة أو لعلها كانت الرابعة لتنجلي عني شوائب البول الذي تجمد على جسدي في برودة الليلة الماضية. شعرت أنني كسيحة وضئيلة أمام زجاجات الشامبو والشاور جل التي بدت أمامي عملاقة تفوح منها رائحة نباتات لا أعرفها وزهور لم ألمسها ومروج لم أرها وفاكهة لم أذقها. رائحة جميلة على وشك أن تغزو جسدي لكنني أحس بها كرجلا غريبا يهّم علي. رجل لست من مقامه. رجل يدرك وأدرك أن علاقتنا لا يمكن أن تصبح شرعية ولكنه يريد أن يحظى بجسدي لأنه قوي وأن يسيطر على روحي لأنه وسيم. رائحة ليست من أجلي كرائحة دلو البول وتماثيل البراز التي استلقت من حولي، رائحة من أجل (ريم) القاهرية بنت الأكابر.

ريم التي أحبها، فلولاها لفررتُ خوفًا من مطاردات نفس المصير الذي كان يفرض عيونًا على كل وظيفةٍ شرعتُ العمل بها، إلى كفر الدوار التي جئت منها. آه، كفر الدوار.. هي بلد شبه قروية

وشبه مدنية. براح أخضر يتوغل فيه تراب المصانع. تعوَّدت أن أسمِّيها المسخ؛ لأنني كنت أشعر أن أهلها مُدَّعون للمدنية. يتباهون بالسيارات الفارهة وملبس الأفندية الأوروبي وموديلات الهواتف المحمولة ولم يزالوا يقبضون على عادات هي، مقارنةً بالعالم، في حالة الفناء المحتوم.. كلوم عائلة فتاة مثلي لأنهم سمحوا لها بالسكنى بعيدًا عن سيطرة أهلها.. كالنميمة، كرفض الحب قيمةً وقالبًا.. وهم على ذلك الحال نسوا حياة الفلاحين البسيطة التي يحفها التكافل، الفطرية التي يلوِّنها الفضاءُ الأخضر، ومكانة الأخ الكبير، واللمة عند الحصاد، والقبلات المسروقة بين عيدان البوص، وأغنيات ليالي الزفاف الجريئة، واللهفة بانتظار موالد الأولياء، والصبح في وجه رغيف الخبز الفلاحي الطالع لتوِّه من جوف الفرن الطيني...

خرجت من مقر أمن الدولة سالمةً بعد هوانٍ بفضل وساطة عائلة ريم ذات النفوذ.. لكن ماذا لو أنها لم تكن موجودةً؟ لكان مصيري كالعراقيين بسجن أبو غريب.. لكنت مُنتَظِرًا آخر في طابور الصمت! لهذا قررت في لحظةٍ حرجةٍ من حياتي مثقلة بكوابيس غفواتي.. مشوبة بارتعاشات الجسد الذي قاطع النومَ. أن أشترك بإحدى منظمات حقوق الإنسان لأساعد ضحايا التعذيب، وبنفس التوقُّد الذي بدأتُ

معه مشواري القصير كمعدَّةٍ لبرامج التلفاز، بنفس التوقُّد الشابِّ الساذج الذي مقته بمرور العمر.. أكملت رحلتي في طريق كنت أطلق عليه (كشف الفساد)..

***

-٢-

الأرقُ يُطيلُ مراحلَ وخزِ الضمير، والأقراص المنوِّمةُ تسلِّمني للكوابيس.. الكلماتُ تخرج من تحقيقات قضايا التعذيب على مكتبي، تتسلل عبر غرفتي، تنام إلى جانبي على الوسادة.. أحاول إنقاذه قبل أن يكتمل التحقيق، هذه المرة أنجح.. آخذه في نزهةٍ نيلية.. مركب صغير ومجدافين.. نضحك.. أضحك يتعاظم صوت ضحكاتي.. أتوقف، لكن الضحك لا يتوقف.. أنظر أمامي فإذا به اختفى.. ينقطع ضوء القمر الذي تلألأ منذ قليل على سطح المياه.. أفزع.. أقوم.. أستعيذ بالله...

***

بينما أنام، هل تنتقل الروحُ إلى مستوياتٍ كونيةٍ أخرى؟ تشدُّ الرحالَ إلى مدى.. تسمو إلى النجوم.. تتطهر بالضوء.. تتأمل السكون.. تدرك معارفَ لا نستطيع تفسيرها.. يتلاقى الأحباء أحياءً كانوا أم أمواتًا.. نتشاطر الطمأنينة معهم أو الألم.. ليتبقى بداخلنا صباحًا ذلك الشعور الغامض يبعثر الفرحة.. وتكسرنا أحمالٌ بالأمس

رضينا بها.. نمقت من تصالحنا معهم أو نحتضن من ضقنا بهم قبلها، ويزيغ بأعيننا أملٌ ينير ما وراء الأفق الضيقة...

أم تنكمش الروح إلى داخلنا؟.. تعيد بناء المعرفة، تُسمّي الحقائق بمسمياتها التي تُرضيها.. تخفي حقيقةً وتبرز أخرى.. تنسينا وتذكّرنا.. تتجاهل إشاراتٍ وتستجيب لأخرى.. تعبث أو ترسّخ إيمانًا.. فنعود على غير حالنا.. ننمو.. ننضج.. نتغيَّر.. يسقط كلُّ ما قد يغيّر كينونتنا أو نتحايل.. نتماهى.. ننجرف..

كل ما أعرفه أنني بعدما تجاهلني النوم لأسابيع، انكشف جسدي.. أصبح أكثر عرضة للاستجابة.. يحس.. يهتز.. يضعف.. يتألم، أما روحي فأصبحت خدرةً وشعوري ينمّل لا أكثر ولا أقل...

حالة من اللامبالاة كما وصفها أصدقائي؟

أم حائط يحميني من سطوة الرياح المجهولة المصدر؟

لا أدري، يرضيني ذلك أحيانًا.. لا قلق.. لا حسرة.. لا اكتئاب ما قبل الإفضاء الشهري.. لا دموع تتسرب خلالها طاقة هدم.. ولا خوف حين فرحة؛ خشية أن تُسلَب ولو بعد حين...

حتى الآن أنا سجينة تلك الحالة.. أو ربما حُرَّة.

انقطع عني خيط الضوء الأخير.. لا أحد يراني خلف السد الزجاجي.. تماهيت لسنين مع أملٍ مبتور أن أحدًا قد يخطو نحوي عبر الزجاج ليمحو عني شقاء الحلم.. من وراء الزجاج أسترقُّ النظرَ.. أرى إخوتي.. أتمنّى لو أعود إليهم.. في نور ظلماتهم ونس، في عرق شقائهم عبق.. ينير روحي سلامُ قلوبهم.. يدفعني للمحاولة مرةً أخرى.

اسمي زينب. أعمل في منظمةٍ حقوقية.. أدافع عن حقوق الإنسان بكتابة التقارير، أحاول أن أستطلع الآراء وأن أقف على الحياد لكنني مع كل محاولاتي أفشل.. أحب أن أشارك في مظاهرات الحركة النسائية، تقل فرص الحدوث فأتلهف أكثر للتفاعل.. لم يعشقني رجل قط، أو على الأقل ليس كما تصورت.. لم أتمادى في الحزن، ربما لأنني أحببت رجلًا لا أميل إلى الارتباط به. أطلقت عليه شهريار في دعاباتي مع الأصدقاء. بين الحقوقيين رجال مثل (حنًّا) يدعون للمساواة.. يؤمنون بها، لكنهم لا يطيقون على الإخلاص لها صبرًا. "الحب يصبح مع القيود ممارسةً" هكذا يبرر تنصُّلَه من المسئولية.. يتهمني بالرجعية وميلي لفلسفةٍ مندثرةٍ.. أُفضل تلقيبي بـ "أفلاطونية" و"قروية" على تشويه معنى الحب بداخلي، فقط لأنه لم يملأ روحي فتكتمل...

الكمال! هل يجوز لبشري أن يكتمل؟ أعتقد أن الموت يغويه اكتمال إنسان.. أم أن الإنسان بالموت يكتمل؟ هل ينقصني دفء أمي الأرض؟ ماذا إن قررت إنهاء حياتي.. هل يختفي ذلك الشعور الموحش الغازي روحي بالفقد؟

***

-٣-

أمام شاهد قبر الجندي المجهول.. ممسكة بيد أختي الصغيرة ذات الخمس سنوات.. تتلو من بعدي آيات سورة الفاتحة ثم أحدِّثها عن انتصار عظيم وخيبة أمل، سألتني الصغيرة: "لماذا خُضنا الحرب؟" لم يبدُ لي أنها قد تفهم ـ القدس أم الثورة تضيع بعد النضال؟ ـ أخذتها إلى السينما لنشاهد فيلمًا عربيًّا (أبيض وأسود).. انطفأ نور الشاشة بعد الإعلان عن الفاصل.. حين أضيئت القاعة لم أجدها. وخرجت فزعةً كعادتي في الحلم أبحث عنها في شوارع القاهرة الأثرية المظلمة دونما أثر...

***

ما إن سألت أمي عن صوت صافرة القطار يتكرَّر ويطيل على غير عهدي به حتى طرقت الباب آتيةً بالنبأ...

(خرج قطار الصعيد عن القطبان مجتاحًا سور المحطة ماضيًا في دهسه عبر الناس وبضائع السوق، حتى توقف عند شاهد الجندي المجهول بالساحة القريبة من محطة القطار.. مات وأصيب العشرات

ويتم نقل الجرحى إلى مستشفى المبرة الحكومي والذي لم يكن مستعدًّا لمواجهة مثل هذا الحادث الرهيب ببلدةٍ صغيرةٍ...)

وجاءت شريكتي في التختة ذات الاثني عشر عامًا تحمل الخبرَ وتسألني وأمي عن قطن، شاش، ثلج، ملاءة أو بطانية والمشاركة معها في جمع التبرعات التي تنقص المستشفى. أحضرت أمي الثلج بينما امتطيت حذائي مبادرةً بالخروج. وعندما عادت لتراني متلهفةً لرفقتها نهرتني على الفور وأغلقت الباب في وجه صاحبتي. لم ألح في سؤالها (لماذا تنهاني عن المساعدة، أليس في ذلك الخير الذي يُدخِلني الجنة كما علمتني!) ولم انتبه إلا بعد مُضي الليلة أنها أجابت بأنها لن تتركني أقرع الأبواب وأدخل بيوت القوم في عز الليل؛ حيث لاحظت بعد دقائق من انصراف صاحبتي وجارتي أن أبي ليس معنا بالبيت وأهالني هاجس أن يكون قد مر من هناك لحظة وقوع الحادث ووقفت بالشرفة أبكي وأدعو أن يرجعه الله من أجلي بالسلامة، ربما كانت تلك أول مرة ينبثق من داخلي الحب.. حبي لأبي ولله الذي أعاده سالمًا.

هكذا كلما سمعت صوت القطار يغزو سكون الليل أتذكر اكتشافي للحب والقلق والدعاء، واكتشافي الأنوثة التي تقيِّد فينا المبادرة.

أعلنت الصافرة عن تحرك القطار في الوقت المناسب...

ريم: مات واحد مسلم.

_ الدم واحد.

حنّا: مضت ليلتان والاعتداءات الطائفية التي تطال منازل الأقباط في نجع حمادي وقرية بهجورة مازالت مستمرة.

شريف: سنشكل مجموعة واحدة ولن نفترق في أي خطوة.

_ لا يزالوا يطلقون الرصاص من الأسلحة؟

حنّا: مجموعات تحمل أسلحة بيضاء وعصياً وأوعية من الجاز، يكسرون أبواب المحلات التجارية ويشعلون النيران فيها ويتهجمون على البيوت.

ريم: منشور في صحف اليوم أن نحو ألفي قبطي تظاهروا في المدينة عقب تشييع الجنازة، محطمين سيارات ومحال تجارية أيضا.

_ أين أمن الدولة الآن؟

شريف: الامر ليس بهذه السهولة يا زينب. الصعيد يحكمه عصبية العائلات والعشائر.

ـ ما يحدث موجة أخرىٰ لمواجهات فرشوط التي تفجرت في نوفمبر الماضي، عندما اتهم شاب قبطي بالاعتداء الجنسي علىٰ فتاة مسلمة. واشتعل الغضب في نفوس الأهالي المسلمين. كان علىٰ الشرطة أن تؤمن المطرانية. وعلىٰ قوات الأمن المركزي أن تنتشر في البلد بأكملها. ألا يستطيع جواسيس أمن الدولة المزروعين في كل مكان أن يتوقعوا ما حدث؟

بدا علىٰ (ريم) أنها تواجه صعوبةً في السيطرة علىٰ أعصابها، لما سألتها قالت: "قد يتعرض لنا الأمن أثناء تقديمنا لواجب العزاء.. ما يقلقني أكثر ابتعادنا عن القاهرة".

فطمأنها حنا قائلًا: "لا داعي للقلق، عددنا لا يتجاوز عشرين شخصًا حتىٰ نمثل أي مشكلة أمنية".

ـ ونحن مستقلُّون، لا نتبع أىٰ حركة أو حزب.

حنا: ومع ذلك أنا مُحبَط بعد كل الحملات التي دعونا إليها علىٰ الإنترنت، لم يكن هذا الحشد الذي توقعت".

شريف: لسنا بمفردنا اليوم سنقابل العديد من أصدقائنا من الحركات الأخرىٰ في العزاء مثل (شباب ضد التمييز) و(كفاية) و(أنا علماني) وغيرهم...

فهمت أن حنّا وشريف يفتحان باب آخر لمناقشة تجمعنا لاهاء ريم، لكن قلبي انتقلت إليه العدوىٰ وكان ما كان

ما إن نزلنا من القطار وبدأنا نتجمع في محطة (نجع حمادي) حتىٰ فوجئنا بقوات الأمن تقبض علينا مبكرًا علىٰ غير ما حسبنا.. ولما سألنا عن السبب وُجِّهت إلينا تهمتا "الإضرار بالوحدة الوطنية" بالترويج بالقول والاشتراك مع آخرين في تجمهر أكثر من خمسة أشخاص بغرض التأثير علىٰ السلطات...

***

- ٤ -

(أجري على الكورنيش.. أنا قريبة جدًّا من الكوبري.. لكن حركة قدميَّ لا تُسفِر عن أي تقدُّم.. كأن الأرض من تحتي تتحرك عكس الاتجاه.. بالكاد أصل.. تتصلَّب قدماي عند بداية الكوبري كأنها حجرٌ ثقيل، لا أستطيع رفعها.. أنظر أمامي.. أجد الرجلَ رافعًا ابنه ليرميه في اليم.. أصرخ.. أشير إليه، يسمعني المارة فيتجمهرون حوله.. عندما أصل وأحاول اختراق الكتلة البشرية، يشهر الرجل - الذي محيت ملامحه - يديه الفارغتين، أصرخ: (أحمد)..............)

وأقوم على محاولة للتنفس.

***

ما إن دخلت الزنزانة وصرخ اصطكاك حديد الباب خلفي حتى ظننت بأنها فرصتي المنتظرة للحصول على نومٍ عميق ومتواصل، نومٍ خالٍ من الكوابيس كما أخبرت (ريم) فضحكت ثم قالت: "لمِ لا؟"

"من لسانكِ لباب السماء".

"ولماذا لا تعرضين نفسكِ على طبيب نفسي؟"

"الطب النفسي في مصر يعتمد على المهدِّئات ولا أرغب في اللعب بكيمياء جسمي".

وسألتني إحدى الزميلات عن سبب أَرَقي فرددت: "غالبًا لأنني أفكر أكثر من اللازم".

وقالت ريم: "من المرجح أن زينب تخشى من النوم".

فسألت الزميلة: "لماذا؟"

فأجابتها ريم: "لأنها عندما تنام ولو لفترةٍ وجيزةٍ تنتابها الكوابيس. تكرَّر ذلك معها مرارًا لأنها لا تستطيع مقاطعة النوم بصورةٍ مُطلَقةٍ.. تنام كل بضعة أيام من شدة الإرهاق".

وسألتني زميلةٌ أخرى: "هل حاولتِ تفسير تلك الأحلام؟"

"قرأت تفسير ابن سيرين وأيضًا تفسير ميللر. لكن قراءتها لم تعينني إلا قليلًا فأنا أرى أن الأحلام هي متنفس العقل الباطن للتنفيس عن مخاوفه وآماله".

عندما أخذت الطبيبةُ تشرح لي تفسير حالتي: إحساس بالذنب رغبة في جلد الذات، قدرة على استعادة الأحداث أثناء النوم، استعوضتُ القديرَ في نقودي وكففت عن الإصغاء لها حتى شرعت

بإخراج نصائحها الذرية من دولاب مكتبتها الضخمة: ألا أشاهد النشرات الإخبارية وألا أقرب الجرائد التي قد يكون بها صور أو تقارير مفصَّلة وواصفة لأحداثٍ تراجيدية وحشية قد تؤرِّق نومي. أي بالنسبة لي، أن أنفصل عن الواقع. أتخلَّى عن عملي وأكرر قول "ماليش دعوة" عشر مرات قبل النوم، نصحتني أيضًا بالاشتراك في الأعمال الخيرية ومساعدة المحتاجين في محاولةٍ لإشباع رغبة ذاتي بأن تفعل ماعليها.. أليس هذا ما أقدم عليه كل يوم؟ وفي نهاية كل يوم تنتابني رغبة شديدة في الصراخ، لو أنني أملك ثروات العالم...! ولكن ما باليد حيلة ـ وهكذا تنحشر الصرخة في حلقي.

الغريب أن الطبيبة تجاهلت ما حكيت لها من تفاصيل عن حياتي وعملي، وإن كانت لم تعرف ما العمل، لم لم تصمت فحسب وتوفر نصائحها...!

لكني الآن أفهم لمَ حكيت لها عن (أحمد) و(مجدي) و(عصام) كيف أثروا على حياتي وقد كنت في مقتبل العمر. ربما حبي ل (أحمد) في تلك السن الصغيرة هو ما وهبني القدرة على التعاطف ومعايشة معاناة غيري إلى جانب قدرتي على تخيُّل ما يُحكى لي، فأخلق صورةً موازيةً لما عاش فيه الآخر كما قالت الطبيبة. تلك الصورة التي أحشر أنفي فيها وأحياها من بعده.

***

حكت لي (رحمة) ببساطة الأطفال ملخصًا صغيرًا عما عاناه (أحمد)، كنا صغارًا ولكن ظلت كلماتها محفورةً في ذهني.... "عمها كان على وشك أن يلقي (أحمد) من فوق الكوبري في ترعة المحمودية، و(أحمد) الآن مقيم في منزلها حتى يوصي القضاء بحضانته لأمه".

لقد سمعت أبي قبل ذلك وهو يتكلم مع أمي عن الرجل الذي كان على وشك أن يقذف بابنه في ترعة المحمودية، وكيف أنهم أنقذوا الطفل الذي ظل متشبثًا بقميص والده في آخر لحظة. لم أتصور المشهد إلا عندما أخبرتني (رحمة) بها ظل يطاردني حتى الآن.

ريم: أتفهم حالتكِ يا زينب وأشعر بكِ، ليالي طويلة ظللت أحلم ب(عصام) يغرق وكنت أقوم مفزوعةً ولا أكمل نومي، لم أشعر بالراحة إلا حينما اقنعت نفسي أن ربنا اختاره.

* * *

اشتركت معها في تنظيم عدد من المسابقات التابعة لاتحاد الطلبة، لكن لم تتوطّد علاقتي بها إلا بعد مرور ثلاث سنوات من تعرُّفي عليها، صداقة أخرتها غيرتي من ريم العنيدة ذات الصوت الطفولي والملابس الباهظة والتسريحات المتغيرة كالأقنعة. اشتغل والداها

بالسلك الدبلوماسي، كانت طفلتهما الوحيدة، تنتقل معهما من بلدٍ إلى آخر.. تستمتع إلى جانب حنان والديها بثقافاتٍ مختلفةٍ وذكريات محتفية بثراء الألوان.. وهي لم تَغُص في صداقةٍ طوال الثلاث سنوات، كفاها عصام ينهل من وقتها ومشاعرها وتفكيرها وخيالها وفنها ما شاء. لطالما حسدتها.

عام البكالوريوس، نظَّمنا معرضًا فنيًّا ـ وقد كنت أول رئيسة لاتحاد الطلبة بالكلية ـ علقنا اللوح في الردهة المؤدية إلى قاعة المحاضرات. كانت تشارك بأربع لوحات التف حولها الجميع. كتبنا تحتها "حالة سيريالية تنتاب الفن الشعبي" ل(ريم الراوي).

أثناء الحفل لم أجدها، بحثت عنها لتتسلم شهادة التقدير حين ينادي العميد اسمها.

عرفت أنني سأجدها خلف تلك الشجرة المنزوية في ركن الكافيتريا حيث تجلس دائمًا مع (عصام).. لكني وجدتها وحيدةً للمرة الأولى تتأمل الكرسي الفارغ! أخبرتني أن (عصام) قرر السفر إلى إيطاليا وأكمل جميع الترتيبات دون أن يخبرها حتى أنه أجَّل دخول الامتحانات ذلك العام بحجة ظروفه النفسية بعد موت والدته. ثم مالت على كتفي تقطر دمعة واحدة. ثم ابتسمت ونادتني "يا صديقة".

أدنيت بدلوي عند عنق الابتسامة. وطبطبت على صدرها وحملتها على الوقوف ودلفنا إلى قاعة الاحتفال.

كانت أحوال (عصام) المادية سيئةً جدًّا، كلنا حفظ ذلك القميص الأحمر الذي لا يبدله أبدًا، كان يمكنني أن أتعرف عليه على بُعد كيلو متر ولا أخطئه أبدًا. جلست معه مرةً في سمر بمعسكر الكشافة، ساءني أن يحكي لي تلك التفاصيل ولم يعرفني جيدًا وكأنه يستجدي العطف، لكني تعاطفت معه بالفعل بل أعجبني، هكذا لأنني قلت لنفسي "رجل".

***

معي في الزنزانة.. أعرف ملامحهن، رأيتهن من قبل يقفن في المظاهرات التي يساعد في تنظيمها (علي) و(حنًّا).. لم يتحدثن عن تفاصيل حياتهن، ولكني رأيت في أعينهن ألمًا يشبه ألمي.. تاهت عني الوحدةُ التي لازمتني طويلًا وجدتني أتنفس.. ولم أقنع بتذمُّري من وضعنا غير الآدمي في زنزانةٍ صغيرة ذات شباك وحيد ضيق وقد تكدَّسنا بمثل هذا العدد.. وجدتني دافئةً رغم إعلاني أن جلوسنا على البلاط الوسخ انتهاكٌ لكرامة الإنسان.

علىٰ البورش غفوت...

"بينهما وبينه باب حديدي مغلق وخلفه شاويش مهيب طوله وعرضه، وكلما حبس دمعة تفلت منه أخرىٰ. "شد حيلك يا بابا" يربت الشابُّ الصغير علىٰ يد أبيه، تنهمر الأمُّ في البكاء التي حاولت كبته، يسحب العسكري الأبَ المنهزم، في ظلام الزنزانة تذكر فرحته بالابن الحيلة.. شقىٰ لإتيانه.. شقىٰ بإتيانه إلىٰ الحياة.. يقرِّب كفه إلىٰ عضلات قلبه.. يتوجَّه نحو الشباك الضيق.. يلامس أعمدة الحديد المثبَّتة في الشباك. يقع.. يتشنَّج صدرُه.. يلتفت شاخصًا نظره نحوي.. تُلاقي عيناي عينيه الساكنتين.. أتحسَّس عنقَه.. نبضه توقف.. أحاول إعادته إلىٰ الحياة.. أضرب علىٰ صدره.. أضغط.. أضغط.. أضغط.."

أفيق من النوم علىٰ صوت (ريم).

***

عندما قمت كانت الإضاءة ساطعةً علىٰ غير حالها قبل نومي. بعد دقائق اعتادت عيناي، فتحت عينيَّ وعجبت لما رأيت.. كن يفرغن حقيبة (ريم) "الجامبو" هكذا أطلق عليها، تحملها دائما، تملأها بأدوات الرسم وعلىٰ الأرض أدوات للزينة بما فيها قلم الكحل والماسكارا وأحمر الشفاة خاصتي..

سألت: "كيف أتيتم بتلك الأشياء؟"

ردت (ريم): "الجدع".

ـ "من؟"

ـ "ضابط النبطشية، هيا معنا، سنرسم كلنا على الجدران ولكن أتركي الكتابات كما هي، لا يصح أن نتعدَّى على مدوَّنات الآخرين فقد تكون مصدرًا وحيدًا لبرهنة وجودهم هنا يومًا". سكتت وأضافت ضاحكةً ممسكةً بأنوبة اللون الأخضر: "فلنرسم نحن أيضًا برهانًا ما".

ـ "الجدع أيضًا هو من أضاف اللمبة؟!"

أومأت مؤكدةً بنظرةٍ غريبة...

وكأن الجدران عندما أُضيئت الزنزانة لها مذاق آخر، أسمنتي وأعتى وحشة من الظلام الذي كانت عليه.. أسمنتي وملطخ بدماء فقدت حمرتها وصور لوجوه مسلوبة السريرة وحروف دوِّنت القهر.. أقرأ.. تسري في عنقي رعشة وشعور يعصف بجسدي ما بين الخوف والاشمئزاز.. بحثت بين زميلاتي عمَّن تشاركني.. وبدا جليًّا أن ضابط النبطشية طمأنهم، فقد زال عن أعينهن القلق حتى (ريم) الدائمة التوتر.

***

أخترت قلم الفحم وظل العينين ذا اللون الأبيض المتلألئ.. أخذت أرسم صورة الشبَّاك الضيق في الحائط المقابل. تكوين لا يتطلَّب فنانًا تشكيليًّا مثل (ريم) لإكماله. رأيت من خلال شباكي النجومَ الساطعة التي رسمتها بظلال العينين.. الآن بزنزانتنا شباكان

ويمكنني أن أتنفس قليلًا.. على جداري لم يرسم غيري، فقد كان مشغولًا بالكتابات التسجيلية التي اتفقنا على تفاديها.

مكتوب بطبشور أحمر.

كلمات عرفت فيما بعد أنها جزء من قصيدة لمحمود درويش

لاشـيء يُوجِعُنـي علـى باب القيامةِ
لا الزمانُ ولا العواطفُ .
لا أُحِسُّ بخفَّةِ الأشياء أَو ثِقَلِ
الـهواجس . لم أَجد أَحداً لأسأل
أَين ((أَيْنـي)) الآن ؟ أَين مدينةُ
الموتـى ، وأَين أَنا ؟ فلا عَدَمٌ
هنا فـي اللا هنا ... فـي اللازمان ،
ولا وُجُود

وعندما كنت أقرأ تلك الكلمات التي حفظتها ولم أنسها قط.. أحسست برهبة عميقة.. وكأن شيئا ما رائع يحدث لي.

هذا الشيء كان تمردي وكان اعتقالي.. لأنني الآن أشبه الكتاب العظماء الذين تم اعتقالهم في دفاعهم عن الحقيقة، مثل ذلك الشخص المثقف الذي كتب هذه الكلمات العميقة الآسرة. وكان هنا.. في يوم ما، من زمن ما.

أنا على دربه.

(هل كان شعوري ساذجا؟ أم أنه شعور طبيعي شاركتني فيه أخريات؟ هل للشعور منطق؟).

***

استأثرت (ريم) بالحائط غرب شباكي، رسمت لوحةً جداريةً تنتهي بحدود الحائط المستطيل المختزل للنصف، فعلى يساره الباب الحديدي يملأ مساحة النصف الآخر.. لبثت أتأملها ونسيت شبّاكي وتجاهلت الورود والأشكال التي رسمتها الأخريات. ولا تكف ذاكرتي عن عرض صورةٍ مفصّلةٍ للجدارية على ذهني كل صباح..

مضت ساعة مسحورة في تأمل عروسة المولد بينما جلست على المرتبة مستندة إلى الحائط..

العروس ذات الفستان المزركش بجميع الألوان الزاهية التي تجذب أعين الصغيرات، كألوان الفراشات القماشية التي خاطتها أمي بفستاني الأزرق لأرتديه في حفل زفاف خالتي، كنت في الثامنة وظللت أدور وأدور لترفرف أجنحة الفراشات وترترف الجونلة وتأخذني وأطير. مثلما تطير تلك العروس على ظهر الفرس المجنح الأبيض، جناحيه واسعين، ريشهما ذو الطرف الأسود كجناحي نورس سكندري الأصل.. والنورس كائن عجيب مثلي يحب الاستقلالية ويعيش في جماعات.

العروس مذعورة الوجه، مُقفَلة العينين، تتشبَّث بعنق الفرس الذي يحاول الهروب بها من مخالب العنقاء.. والعنقاء الجحود المفترسة تكاد تنقضُّ على كتفيها.. فتدنو بوجهها نحو عنق الفرس كأنها تنهي نفسها عن النظر إلى الوراء...

تاج اللؤلؤ الأحمر مشبوك بخصلةٍ من شعرها يكاد يقع.. وسواد السماء يكحِّل نورَ السُّحُبِ البيضاء الصغيرة وهي على وشك الاستسلام لجفون الليل السادلة..

الخطوط التكعيبية أربكتني.. تتلاقى بألوانها الباردة والساخنة على فستان العروس وشعرها وتاجها..

من أي وطن أنتي أيتها العروس الحلاوة.. قريتنا أم حواديت شهرذاد؟!

بعدها نظرت إلى شباكي، لم يكن يشبه الشباك في الحائط المقابل الذي عُلِّق عليه دولاب صغير لبراد وأكواب شاي وسكر، ويستند عليه بقايا حمام قديم مسدود بالأسمنت وحوض صغير يعلوه صنبور مياه.. بل كان صورةً طبق الأصل من ذلك الشباك في حلمي، ينظر من خلاله والد (عصام) ـ الذي لم أرَه إلا في صورةٍ فوتوغرافية وحلم ـ إلى السماء.

***

بينما سادت يد النعاس على الجميع يسبقها الإرهاق، كنت أحملق في السقف بفنجانين قلقين..

ريم مستلقية بجواري بذراعين مبقعين بالألوان المائية. حديثها ذكّرني بعصام..

يجلس قبالي في حفلة سمر الكشافة، يحكي لي عن فتياتٍ أجنبيات يزرن (بزار) صديق والده. يرسمهن بريشته العاجية السوداء على ورق بردي ويزيِّنَّ رؤوسهن بتيجان فرعونية على شكل أفعى. صديق والده مثَّالٌ علَّمه النحت. يخبرني أن أنفي الفارسية تتلو حكايا عن مجدٍ أنثوي سيبدأ بتقلدي أمانة اتحاد الطلبة، أضحك. يطلب مني صورةً فوتوغرافيةً، يقسم لي برحمة أبيه أنها تعوزه فقط لينحت أنفي على تمثال آلهته الجديدة. كلماته ترضي غرور فتاة داخلي. أفهم كيف يأسر (ريم الراوي) تحت عباءته.

قال: "أنتِ قطعًا يا مؤمنة على درايةٍ بأن من توفي والدهم مثلي تتولى الدولة التكفل بمصروفاتهم الدراسية، ولكن في بداية كل عامٍ دراسي أظن بأن الإجراءات البيروقراطية لن تنتهي. أنا لم أتسلم الكتب حتى الآن رغم مرور شهر ونصف على بدء الدراسة".

_ "لا تقلق.. سأتولى موضوعك غدًا، لكني لا أعتقد أن العيب في الإجراءات، ربما أنت من تأخر بتقديم الأوراق. ضحك ثم شكرني".

قلت: "من الواضح أنك تحب صديق والدك هذا كثيرًا".

_ "نعم.. ليست عندي صورة لأبي إلا وكان مع أصدقائه. انظري..."

أخرج من محفظته صورةً، نظرت فيها. أشار إلى أبيه.

_ "يشبهك كثيرًا لكنه أكثر وسامةً منك.. الرجل إلى جانبه يبدو مألوفًا لي.. يشبه اشتراكيًّا نشطًا بحزب التجمع سجَّل (علي) معه تقريرًا تليفزيونيًّا الأسبوع الماضي!"

_ "أعددت اللقاء مع صديق والدي المقرب بنفسي من أجل (علي)".

_ "وكان والدك اشتراكيًّا أيضا؟"

_ "نعم، وأنا أيضًا كنت كذلك حتى الثانوية العامة، اضطررتُ أن أقلع عن تلك العادة السخيفة وأن أنتبه إلى دروسي من أجل المسكينة والدتي. أصدقكِ القول أن التخلي عن اندفاع الشباب لم يكن خالصًا في سبيل رضا والدتي يا زينب. ففي ذلك الوقت جاءني استدعاء من "الفراعنة"..

_ "أنت سكندري! إِذَن نحن جيران فقد ترعرعت بكفر الدوار. وجدتي سكندرية، إِذَن فأنا بلدياتك أيضًا. لكن تمهَّل، لماذا استدعوك؟"

_ "أنشأت وصديقي معرضًا للوحاتنا الفنية بقصر ثقافة الأنفوشي. صوَّرنا الحياة في (الماكس) البيوت المتهالكة على الجانبين

تتخللها (الفلوكات)، الجدات يتسامرن على أعتاب البيوت، الرجال الشقيانين العائدين بالسمك.. عمود السواري المُهمَل يلتف حوله العشاق. وكتبنا شعارات تحت كل لوحة تندد بالفقر.. أخرجوا ملفًّا أخضر به صورتي وتقارير عني وعن والدي. وقال الضابط: (لا بأس طالما الملف أخضر أحرص على ألا يتحول للون آخر). هكذا وحسب..لم يقل شيئًا آخر، لكنني خرجت مهرولًا حتى المنزل".

_ "وهل علم والدك بذلك؟"

نظر إليَّ باستغراب. ثم قال: "يمكنكِ أن تصبحي مضيفة برامج مميزةً". ضحكت (كنت قد أرسلت سيرتي الذاتية لأعمل ببرنامج تليفزيوني جديد تبثه قناة فضائية خاصة، يهتم بأقليات وفقراء القرى النائية. تمنيت أن أُقبل).

أخبرني أن والده كان مجرد عامل بسيط ولكن في زمن التأميم. الأجور مرضية والضمانات الاجتماعية الجديدة والتموين الغذائي وتسكين العمال.. كل ذلك تضربه موجة الانفتاح الاقتصادي، توقف حال الصناعات المصرية.. يمكنك أن تشتري كل شيء أرخص من بورسعيد. أما المنتجات الغذائية فقد ارتفعت أسعارها وزادت طوابير المجمعات الاستهلاكية طولًا وتقاتلًا، هل سمعتِ عن أزمة اللحوم؟"

_ "نعم توقف الناس عن شراء اللحوم حتى انخفض سعرها بعد تدخل الرئيس السادات. أعرف أيضا عن مظاهرات طلبة الجامعات".

_ "في تلك الأثناء أتيت إلى الدنيا من أنبوب صناعي، بعد محاولات عدة فاشلة للتلقيح اضطر أبي في سبيلها إلى الاستدانة، كأنه مقامر كلما خسر كلما اشتهى اللعب كي يعوض خسائره، لكنه لم يهنأ.. لم أعوضه"، تنهد عصام ثم قال "كنت في الخامسة ولم يتمكن بعد من تسديد نصف الشيكات وسُجِن".

_ "ولم يساعده أحد ولا حتى أصدقاؤه الاشتراكيين؟"

شرد لبرهةٍ وابتسم بنصف فمه، ثم قال: "لا أعلم ربما لم يتسنَّ لهم الوقت فقد مات في السجن بعد مضي عام".

كلمات عصام عن زيارته الأخيرة لوالده بالسجن.. عن زيارته الوحيدة المسجَّلة بذاكرته.. لم تَزَل تزورني في نومي.. إلى الآن.

***

كانت الساعة حوالي الخامسة، هذا لأنني سمعت صوت الشيخ (عبد الباسط عبد الصمد) يرتل قرآن الفجر. صوته الجنائزي بالنسبة للبعض يبشِّرني بالصباح.

في أعماقي، ظلت أمنيتي بالابتعاد مكتومةً بالخوف من المجهول.. من افتقاد عطف الوالدين وأمان الأسرة. تلك الفجوة بين الأجيال التي يتحدثون عنها في التليفزيون ليست كمثل ما بيني ووالديَّ. لا أذكر مثلًا أن نهرتني أمي، أو ضربني والدي يومًا، كنت بالنسبة لهم الفتاة المثالية الهادئة الوديعة التي يحلم الجميع بإنجابها، ذلك بالطبع قبل تحولي المفاجئ بعد سفري كما يدَّعون.

الحائط الزجاجي يعلو مع ارتفاع قوالب صمتي، كنت أشعر بدفء أفتقده الآن بشدةٍ لقضائي الأمسية بجوار أبي نشاهد برنامج العلم والإيمان. أحببت مشاهد البرامج الخرافية لدرجة أنني فضلت دراسة العلوم على الآداب في الثانوية العامة. ولكن عندما أحالني مكتب التنسيق لرغبتي الرابعة بعد الطب والصيدلة وطب الأسنان، أسعدتني فكرة السفر كثيرًا وخصوصًا أن من ناحيةٍ أخرى كان جميع أساتذة اللغة العربية يشيدون بإلقائي للشعر وقراءاتي للأدب وجرأة

أفكاري. وطوال طريقي في القطار للقاهرة لأول مرة ومعي أبي لتقديم الأوراق، ظللت أغني (أعطيني حريتي أطلق يديا).. أذكر أن أبي كان قلقًا لكلينا أما أنا فظننتني مُرسَلةً من السماء في مهمة..

كذلك عندما وجدت (أحمد) بعد تخرجي في القاهرة، ظننتها إشارةً أيضا من السماء لهجر التفكير في العودة وإغراءات الأهل. وظننت أن الحياة تكافئني على حبي له مدى السنوات وأنني بطلة لروايةٍ مفقودةٍ من أعمال تشارلز ديكينز تنتهي بخاتمةٍ تعويضية، تقتفي فيها السعادةُ أثرَ الألمِ، لكن الحياة خذلتني أو ربما خذلتها وآثرتُ رغم استقلالي البقاءَ خلف الزجاج فقط لأراقب وأكتب التقارير.

***

نسمةٌ منعشةٌ من هواء نقي بارد نبَّهتني إلى أول شعاع ضوء يتسرب من الشباك. شممت فيها رائحة حقل الأرز التي أعرفها جيدًا، وسمعت أجنحة اليمام والغربان تخترق الهواء ساعيةً للرزق...

رفعت قاعدة الحمام المشروخة ونقلتها بهدوء تحت الشباك. تأكدت أن كتفي لا يزال في مكانه لم ينخلع وتسلقت القاعدة وصولا إلى الشباك. لأرى حقل أرز أوسع من الذي كنت أطل عليه من شرفة منزل العائلة، حيث كان يفصل بين صف المنازل وجنينة أشجار الجوافة وكان بإمكاني أن أرى حبات الجوافة تدلى من الأفرع.. هكذا كنت أسهر بمفردي طوال الليل وتلك كانت جائزتي التي أسترجعها الآن "رشفة لذيذة من نسيم الصباح"...

أظنني لا أنفك أتذكر طفولتي، ما سر حبي في الرجوع إلى الخلف؟ يبدو أنني سوف أعيش شبابي في ذكرى طفولتي وشيخوختي في ذكرى شبابي..

بطريق ظننته مختصرًا لسنوات، ألهو مع (مجدي) بين الحقول. بين جانبي الترعة نمر فوق جسور طينية من جنةٍ لأخرى.. في الطريق نأكل سنابل الغلة الخضراء الشهية. نتسلق شجرة الصفصاف المائلة الفروع.. يسبقني إلى أعلى فأعلى حيث لا أتمكن من الطلوع.. وعندما ننزل يُخرِج من جيب المريلة الصفراء بذور الشجرة. يقول: "إذا طحناها نصنع بودرة عفاريت". يمد يده بها. "أيها الشقي" أجري خوفًا من الهرش، أقترح أن أطحنها وأضعها في قفا (قدرية). صدقت

ما قاله عن بودرة عفاريت تخرج من شجرة الصفصاف ولكن لم يطاوعني قلبي على إتمام مقلب، حتى مع الفتاة الأكثر لؤمًا في الفصل.

استمتعت كثيرًا بتلك الأيام التي كنت أخرج فيها من المدرسة إلى منزل جدتي برفقة صديقي. لم أعِ شيئا عن انفصال والداي الذي لحسن الحظ لم يدُم طويلًا..

فقط لتجعلاني أتمشى معهما أقنعتني زميلتان بالفصل أن ذلك الطريق مختصر وأن والدتي لن تلحظ تغيُّبي. والحقيقة أنها لم تلحظ ولكن لانشغالها بحصوة جدتي الكلوية التي جعلتها تلازم المستشفى لأيام.. كانت خالتي التي تسكن بالدور العلوي من البيت هي التي تستقبلني وطفلتها الصغيرة على ذراعها ولم تكن على درايةٍ دقيقةٍ بمواعيد الدوام الدراسي.

في ذلك اليوم أشارت لي زميلتي عند مفترق الطرق إلى شارع جانبي "ستصلين بنهاية هذا الشارع إلى بيت جدتكِ". لا أذكر كيف انتهى بي الأمر لوصفتها.. ربما ذكرت لها اسم الجامع المجاور للمنزل. لكنني بنهاية الشارع لم أجد غير (مجدي) يطل من نافذة بدور أرضي،

قفز منها قبل أن أبدأ بالبكاء ثم أوصلني إلى العنوان الصحيح. ضحك مني لأن منزل جدتي بشارع واسع ورئيسي وليس جانبيًّا.

وهكذا في الأيام التالية كنت أتجول وصديقي الأول من نوعه كفتى أسمر خفيف الظل ـ في تلك المزارع التي تتخلل المدينة الصناعية التي أقامها (عبد الناصر) بعد تجريف الأراضي الزراعية، وبما أنني تحت تأثير صورة (جمال) تتوسط الصالون حيث لا أذكر غير جدي جالس يقرأ. لن أعترف أنه أخطأ في اختيار مناطق إنشاء المصانع تحت أي ظرف. وسأذكر أن مصنع كفر الدوار للغزل والنسيج بالذات أقامه المهندسين الإنجليز قبل قيام الثورة بسنوات، والذنب الوحيد الذي جناه عبد الناصر هو التوسع المفرط الغير مبرر، وبناء مساكن العمال على مساحات الأرض الزراعية التي كانت تنتج قطناً للمصنع. لكنني أغضب كثيرًا كلما رأيت المباني الأسمنتية تطأ على آخر مساحة خضراء اتسع براحها للهو طفولتي.

حلمت..

(أنا والفتى الأسمر نستلقي على جذور شجرة الجوافة.. أنظر إلى أعلى.. أتأمل امتزاجات الأصفر بالأخضر في أوراق الشجر.. شعاع الضوء يتسرسب بين ورقة وورقة وينكسر على كل ورقة. بينما هو يقرأ

لي أخبار (هيثكليف)* من كتابي الأول المسروق الذي لم يلاحظ تخلفه عن رفوف الأساتذة بمكتبة المدرسة الابتدائية.. أسقط نظري تحتي.. للجدول الصغير الذي يغذي جنان روحي تتلألأ تحت ضوء الشمس مياهه الخضراء اللزجة، ويطفو على سطحه الساكن مراكب من مخلفات بشرية وحيوانية، يستقلها ذباب ذو ألوان فسفورية...).

***

* هيثكلف: بطل رواية مرتفعات وذيرينج لإيملي برونتي. يعاني في صغره من طبقية المجتمع. ترتفع مكانته الاجتماعية ليتزوج ابنة العائلة التي كان خادمها.

-٥-

لم أكن صاحبة الفكرة رغم أنني - ومن وجهة نظر مهنية بحتة - الحقوقية الوحيدة بالمجموعة..

شعور غريب بالذنب اعتراني، وأظنني لم أكن الوحيدة، وأزعم أننا جميعًا شعرنا بشيء من التخاذل ونحن نتّفق ونرتب لذلك.. لقد جعلنا من حيطان زنزانتنا المزدانة عند زواياها بخيوط العنكبوت السحرية صورةً ما تعكس أنوار أرواحنا.. عقدًا مع الحياة على المقاومة.. توثيقًا لوجودنا.. أثرًا ليخلفنا، وسرعان ما أخذ هذا الأثر في أسرنا.. في استرجاعنا..

كان عليَّ مقاومة انجذابي للبقاء.. المقاومة سماء حياتي وإلا كنت في منزل زوجي الذي خشيت ألا يجمعني به شيء غير الجدران. منهكةً أكون بعد قلي البطاطس والباذنجان.. المقاومة هي ما أتت بي إلى هنا وما ستحيلني غدًا إلى عالم آخر.. المقاومة تجدِّد آمالي وتمنحني الصبر.. وتلهيني عن فشلي وغلبي وخيبة أملي وجراح الحب المختبئة وثمن الطماطم والخضار والفراخ والأسواق القذرة واختناقات ذرات الهواء من حولي.. عن النائمين على الأرصفة في الليالي الشتوية ورائحة أطفال الشوارع وانتظار عجائز المدينة في طابور الخبز.. والحسرة.

***

اتفقنا ذلك الصباح قبل عرضنا على النيابة، على مقاومة ركوب عربة الترحيلات والاعتصام على سلالم مبنى النيابة بعد انتهاء التحقيقات معلنين رفضنا أن نعود إلى الزنزانة..

إلى الزنزانة حيث وجدت نفسي على ظهر الفرس المجنح الأبيض.. حيث وجدت من خبر آلامي.. حيث تجمعت أربع عوانس جميلات يسعين إلى قلب رجل لا ظله.

إلى الزنزانة.. حيث جلَسَت تحكي عن انضمامها للإخوان واعتقالها وزوجها الذي عرفته ليلة انتخابات مجلس الشعب الأخيرة منذ عامين في ٢٠٠٥. فوهبته قلبها وروحها وولاءها كاملًا له ولمبادئه حتى طلاقها منه، بعدما أشاعت الصادقة المؤمنة بين الأخوات في المسجد ما أفضت إليها صديقتي الجديدة من أسرار المراهقة.. وها هي الآن مُعتَقَلة من أجل من أجل الدفاع عن حقوق أقباط مصر ومبادئها الليبرالية الجديدة.. ولكن هنا مازالت صديقة أخرى جديدة ترقد في حجري عاجزة عن التنفس ومعرضة لإسفكسيا في أي لحظة وكان عليَّ المقاومة..

استطعت بطريقةٍ غامضةٍ أن أفهم لغةً لطالما آمنت سابقًا باستحالة إتقاني لها لأسبابٍ غير مفهومة رغم المحاولات.. "لغة

العيون" هكذا كنا نتحدث أثناء الاعتصام من تستقرئ آراءنا لاقتراح خطط بديلة.. من تشكو من الشمس وحر الصعيد.. وتخبرنا إحداهن كم هي قلقة على أبنائها، والأخرى تتساءل إن بحث عنها زوجها.. ومن تخشى أن يلحظ والدها غيابها إن طال احتجازنا، اكتشفت أيضًا نظرات يرسلنها نحو اللا شيء، كأنها نظرات تدعو وتأمل خيرًا.. تلك الشاردة المشرقة تتصدى لرعشات القلب القلق. تعين بعضنا البعض على الثبات.

دام اعتصامنا ساعةً تحت شمس الظهر المنصهر، حتى جاءنا الجدع متبسمًا. حثَّنا على النهوض مبشرًا بإذعانٍ لرغباتنا. وانتقلنا إلى غرفتين منفصلتين بمستشفى السجن. ولم تدم إقامتنا إلا ست ساعات؛ إذ صدر قرار النيابة بالإفراج عنا لنقص الأدلة...

واشترط الجدع السفر فورًا لتنفيذ الإفراج وكان ما أراد.. حتى أننا لم ننتظر موعد انطلاق القطار من محطة (نجع حمادي) وقمنا بتأجير (ميكروباص) ليقلنا إلى منازلنا كما اقترح.

***

"سرقت عمري من أحزاني، سرقته لكنه ماجاني، ولا حد شاف فين مكاني ورا الشبابيك"

في الميكروباص (ريم) و(علي) و(حنّا) لم يكلوا الغناء..

"شبابيك، وعنيك شبابيك"

يغنُّون ويتلامزون وطلقات أعينهم مصوبةٌ تجاهي (مُسلَّطة) عليَّ.. وأنا أبكي. أحاول الغناء معهم، إنها أغنيتي المفضَّلة، لكنني أبتسم.. أزيح بصري نحو الطريق وبداخلي أبكي..

ذقن السائق تنتصب واستغاثات "أستغفر الله العظيم" تصل إلى الآذان و لا تجد استجابةً..

"أعقدي النية على البوح يا زينب" نصيحة قديمة من صديقةٍ جديدةٍ على المقعد الخلفي.

لم أفهم كيف علمن، حكايات (ريم) أم أن كلتينا فاشلتا التورية! أم أنني كقروية ـ كما يقولون ـ كتاب مفتوح.

المسجِّل قطع الغناء، وعذابات توصيات الحب المتناثرة داخل الميكروباص، بصوتٍ ليته كالأصوات التي اعتاد (حنَّا) على الاستماع إليها، ربما مُجبَرًا وربما متسامحًا أو عن قصد ونية، لكنني أقفشه يدندن

"لما بدا في الأفق نور.. نور محمد كالبدر، كالبدر في الإشراق عند كماله.. نشر السلام على البرية كلها وأعاد فيها الأمن بعد زواله". وعندما أتعجب يعايرني لأنني لم أشب على الصوت الذي يقول كل صباح في وقار "براعم الإيمان"..

لقد كان صوتًا كأنه عاد لتوِّه من الجحيم، يردد "صرخات من تحت التراب" في نوبة غضب، وصدى ألكتروني يكرر من وراءه ما يقول...

***

كان معي رغم محاولات المواربة الساذجة، خياله يرافقني كالعادة. أعيش لقيانا مرات بعد مرات.. كم عام مضى على لقاءانا؟ النيل ثالثنا دائماً، هذه المرة في الكازينو القديم الذي يواجه دار الأوبرا.

القمر يتألق على سطح مياه النيل السوداء. هواء دافيء يغمر وجهينا ويلاعب خصلات شعره الأسود القصير. ويطيح بتسريحة شعري فأعيده كل نصف دقيقة بمقبعه خلف أذني. يمسك أحمد بديوانه الجديد في زهو. أصابعه المحترفة لا تبعد الصفحتين المتقابلتين

على آخرهما ، فقط تفتحهما بزاوية غير منفرجة بالكاد تسمح له بالقراءة:

يقرأ لي

الفتيات المتشحات بالأزرق الليلي

الفتيات اللاتي يمزقن حروفي كل صباح

الرقيقات الأظافر

يتبادلن أخبار بغداد

ونظرات من حسرة يجهلنها

والسور يغشى

سور المدرسة القديمة

ذيل حصان يتأرجح

و كرة بيضاء

تلتقطها يد لؤلؤية

سيهوى النهدين في قاع البئر

صدري...

وتستقر جريدة الأمس على نافذتي

في معركة ملتهبة

أوراقها وأوراق شجرة السنط المطلة

.. محمومة

بأنفاس الخريف الجافة

والسور يغشى

وتنتظم البنات في الطابور

ينشدن ألحان أمجادا قديمة

الجونلات الزرقاء تحضرن الليل

يرسلن إلي البسمات

يرسلن الرعشات

السنط بين خِضر وريقاتها

.. تخبئني

وتقبع الجريدة

تحتفظ لنفسها بإجابات عن سؤال

لم أطرحه

كم من النوافذ ذلك الصباح سقطت

يهديني أحمد ديوانه الجديد الذي صدر منذ أيام.. الذي حفظت غيباً جميع قصائده.

-٦-

لماذا لا أكف عن تذكُّرك.. عن الحلم البكر بداخلي! عن أول كابوس.. عنك؟

في منتصف اليوم الدراسي دخلت متشبثًا بيد المعلمة التي قالت: رحبوا بزميلكم الجديد (أحمد)

في فصلي كان جميع الأولاد حسني المنظر.. مُهندَمين على وجه دقيق، حتى (مجدى) المتشرد كما أطلقنا عليه كان يحسِّن من مظهره حتى السنة الخامسة حين هتفنا جميعا ضده، وهو واقف أمام السبورة قائلين (لا).. إلا أنك لم تكن كذلك؛ لم تكن مريلتك (مكوية) قط في أيٍّ من ذكرياتي، لكن وجهك كالبدر واضح أحمر الخدود، وابتسامتك المنكسرة لغزي المفضَّل.. أنسى الحصة وأتجاهل (أبلة سامية) حتى يشتد غيظها وتخبط على التختة قائلةً: "يا سرحانة يا مهملة". ذلك حين أتفرس ملامحك.. وأتساءل عن القوسين المبتسمين تحت عينيك ـ رغم ميلهما للسواد ـ كالشفاه في الرمز المسرحي.. لم أكن قد رأيت مثلها قط.. الآن أراهما تحت عينيَّ كلما نظرت في المرآة..

في العام التالي بحثت عنك..

بمجرد أن أخبرتني (أبلة سامية) أنه قد تم نقلك إلىٰ مدرسةٍ أخرىٰ حتىٰ تهت في ملكوت الله. أذكر أنني شكوت لزميلاتي شوقي في ليالي الإجازة، وفتحت الباب لأسئلةٍ عن ناموس الحب الغامض.

رحمة، لماذا لا أتذكر وجهها؟

كانت شريكتي في نصب الخيمة في فريق الزهرات (فريق كشافة لبنات ابتدائي) لاحظت تغيُّبي عن التدريب وأخذت تبحث عني حتىٰ وجدتنىٰ بالمكتبة، هوَّنت عليَّ ولا أعرف لماذا كنت آخذ مثل هذا الأمر بجدية، وقد كان عمري لا يتجاوز اثني عشر عامًا!

لم تتركني إلا عندما حكيت لها، أغاظني أنها تسخر منه ثم قالت: "هو ابن عمي".

أخبرتني عن طلاق والديك وحدَّثتني عن فورة غضب والدك التي كادت ترسلك إلىٰ العالم الآخر.

***

قالت رحمة: "هيا... قولي مثل أمس في المسابقة. أهاب كثيرًا عند الوقوف أمام (أحمد) وإلىٰ الآن لا زلت أتلعثم إذا نظرت في عينيه، بينما

أتكلَّم أنظر إلى حذائي لكي أستمر. ربما يظنني خجلةً.. ربما أنا خجولةٌ.

(لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم، فلربَّ مغلوبٍ هوى ثم ارتقى).

دخل علينا المدرِّس الذي لا أذكر اسمه الآن. أظنه كان في الأربعينات من عمره أو تجاوزها...

لم أكمل القصيدة، ولكنه قال: "الله الله على المواهب، أنا افتكرت إنك خجولة".

في منتصف الحصة وكانت والدة (رحمة) قد تركتنا، اقترح المدرس أن نأخذ استراحةً في خلالها يسمعني أُلقي.. وقفت أمام السفرة وكنت بجانبه وهو جالس.. ما إن نطقت بالبيت الثاني حتى شعرت بأصابعه تتسلل تحتي.. إلى فرجي.

حولت نظري إلى (أحمد).. وجدته ينظر إليَّ.. تلاقت أعيننا.. لا أذكر بعد ذلك غير أنني كنت في مدخل عمارتنا.. ممسكة بركبتي، أحاول تهدئة أنفاسي.

دخلت البيت.. سألني أبي: "مالك؟"

لم أرد.. ارتميت في حضنه.. برز الخطاب من جيب الجونيلة فرآه وأخذه.. كنت لا أزال في حضنه أحاول أن أختبئ، أبعدني قليلًا وشهر

الخطاب أمام وجهي ثم قال: "أأنتِ كتبتِ هذا؟" هممت بالقول نعم، لكني لم أجرؤ، تلاشى الفزع بداخل أحشائي وتبدل بالخجل، قرأ أبي الخطاب جهرًا لتسمعه أمي بالمطبخ، واقتربت أمي.. انتهى أبي من قراءة الرسالة ثم أخذا في الضحك.. انتزعت الخطاب من يده.. وانطلقت نحو الشرفة.. رميته ثم توجهت إلى سريري غطيت وجهي بالبطانية ونمت.

بعدها.. طلبت من أبي أن يعاود المذاكرة لي. لم أذهب إلى بيت (رحمة) مرة أخرى ولم أَرَ (أحمد) إلا بعد مضي سبع سنوات في أمسيةٍ شعريةٍ بساقية الصاوي. تعرفت عليه بمجرد أن بدأ بتلاوة قصيدته ولا أدري إلى الآن إن كان يذكر تلك الأحداث أم لا..

خلال تلك السنوات لم أكف عن كتابة الرسائل له..

أحيانًا ألقيها من النافذة ...

***

-٧-

ها قد عدت إلى المنزل.... أخيرًا..

تصمت الآلات جميعًا لوهلة يتسلل خلالها صوت كمان لم تألفه أذني.. يعلو زوم الكمان.. أشعر صوت الأنفاس يتعالى يخترق النوافذ والأسقف.. يسمو إلى الأفق. يعلن عن توحدهما في كائن جديد. ثم تعود موسيقى ما قبل الذروة، لكن هذه المرة أكثر رشاقة وانكشافًا.. أنطلق معها متصالحةً مع الوجود، رغم أن القدر لم يأذن لي بعد ولو بهدنة، لكني أنسى لدقائق..

أهدأ...

عندما عدت إلى المنزل لم أستطِع النوم كعادتي. شغلت أسطوانتي المفضلة (سيمفونية شهرزاد لريمسكي كورساكوف)، تذكِّرني بعينيه الشرقيتين وتُحضر روحه إلى جانبي..

جلست على مكتبي وبدأت بالكتابة إليه.. إليه.. يتسرسب ما بداخلي..

"بلغني أيها الملك السعيد، ذو الرأي الرشيد والعمر المديد والفكر الحديد أن (ريم) صديقتي الوحيدة المتبقية من بين اللواتي

فقدتهن بعد زواجهن، تحب من جديد.. إنه ذلك الضابط (الجدع) كما وصفته، الذي أمدنا بمحتويات حقيبتها من فُرَش وألوان وأدوات الرسم وكل أدوات الزينة في حقائبنا نحن أيضًا لنرسم الجدراية، بالطبع هو سوف يأمر بطلاء الزنزانة مرةً أخرىٰ، وإلا فقد يُعاقَب إذا انكشف أمره، ولكن الليلة بأكملها والجدارية بشكل خاص خلدت ذكراهما في أذهاننا... بهذه السرعة تمكن (الجدع) من خطف صديقتي يا شهريار. لقد أخبرتني منذ قليل بالهاتف أنه سوف يتقدم لخطبتها الأسبوع المقبل، هي لن تعد لي كما كانت.. مع من سأتمشىٰ في حواري الحسين لأفك كربي؟

ستقول أمي: "صاحباتك تزوجن وأنت كالعوانس". لقد قالت لي من قبل أني عانس.

الآن أشعر بالوحدة وربما العنس.. الآن ولأول مرة يجرحني رفضك يا شهريار. تراك هل لا زلت تذكر أمري مع المدرس ببيت (رحمة)؟ أذكر أحيانًا أن الأمر طال وأنه ربما لامسني بكلتا يديه.. أتراها حيلة الانشقاق الدافعية جعلتني لا أذكر إحساسي؟ ترىٰ هل انفصلت نفْسي عن جسدي؟ منذ عشرة شهور حين التقينا بساقية الصاوي أوصلتني بعد انتهاء الندوة الشعرية وفي الطريق تلاقينا،

تمشينا لساعة.. تحدثنا لساعة.. طالعني وجهك ساعة.. قاطعني الأرق لأسابيع بعد الساعة.. الآن الأرق رفيقي وقد عاد وحده ليؤنسني..."

أعدت تشغيل الأسطوانة مرةً أخرىٰ بعد انتهائها.. موسيقىٰ الجزء الأول تحكي لي عن قهر الشاهريار..

ولكنه ضابط. هل أحدث ريم في ذلك؟

كنت قد قرأت أيام الكلية بحث أنتجه مركز الدراسات الاشتراكية، يتناول سيكولوجية رجل الشرطة. ويقدم شهادة أحد الضباط الذي تم اتهامه في قضية رأي من قبل وزارة الداخلية بتهمتي إهانة الوزارة وإفشاء أسرارها. كان قد ألف دراسة نقدية بعنوان "اعترافات ضابط شرطة في مدينة الذئاب ". في المؤلف يتحدث كاتبه عن منظومة نفسية عشوائية تدرب الضابط بداية من دخوله كلية الشرطة بطريق الواسطة والرشوة علىٰ ازدراء المدنيين والاستهزاء بالموطنين. مثلاً إهانة الطالب سواء بما يسمىٰ الشتائم الأميرية أو بالتمرينات العقابية المذلة، وفي ذات الوقت يطلب منه أن يتعجل في مشيته ويفرد صدره وينظر للأمام ولأعلىٰ وأن يمشي متعاجبا بنفسه هكذا وبنفس الألفاظ "متعاجبا بنفسه". ناهيك عن ظروف تتسم بالعنف المستمد من التدريبات العسكرية. وبعد التخرج.. يعلمه زملاؤه القدامىٰ كيف يلفق قضية لمواطن متحاشيا تأنيب ضميره.

يسخرون منه إذا صعب عليه منظر الجثث في حوادث السيارات. هكذا يتحجر قلبه، يغتر، يتعامل مع البسطاء كأنهم حشرات.. لكن، ليست ريم من البسطاء. ولن ينظر إليها الضابط "الجدع" على أنها حشرة.

مليكي السعيد، أتراني (معقَّدةً)! لِمَ أحمل كلَّ هذا الغضب ضد الرجل! مليكي هل حكيت لك عن (عصام)؟ قابلته بعد أشهر من تخرُّجِنا. كنت قد اضطُرِرت للجوء إلى إدارة الجامعة لاستخراج بعض الأوراق اللازمة للتقدم لوظيفة بالمنظمة العربية، ناديت عليه ودعوته لتناول الشاي. وافق على الفور. سألني عن أخباري، إن كنت قد حصلت على وظيفةٍ أم لا؟ تأخرت في سؤاله عن سفره، تصورت أنه سيخبرني تلقائيًّا عن أهم وأخطر تجربةٍ مر بها لكنه باغتني بسؤال:

- "أتعرفين (ريم الراوي)؟"

- "نعم، أصبحت صديقتي المقربة بعد ما سافرت".

صمتُّ وسألته عن سفره، قبل أن يجيب جعلني أقسم له ألا أخبر (ريم) بما سيقول.

- "أنا لم أسافر".

- "كيف؟ (ريم) سألت عليك الجيران بعد شهور وأكدوا أنك سافرت، الفتاة اعتقدت أنك مت أو سُجنت".

- "أخذت من الجامعة إجازةً وذهبت إلى شرم الشيخ في محاولة لالتقاط الرزق".

- "ولماذا أخبرتها إنك مسافر إلى إيطاليا حتى دون أن تودعها؟ ألا تستوعب كم هو مهين أن تترك لها رسالةً مع زميلة.. رسالة شفاهية!"

- "نعم وتلك الرسالة الشفاهية طريق كي تنساني، حاولت أكثر من مرة الانفصال عنها وفشلت".

أخذ يخبرني كيف تعقدت حياته بعد موت والدته، عن تخلّي أخواله عنه وعزوفهم عن النظر إلى أحواله، عن عائلة (ريم) _ أولاد الذوات _ والهوة الاجتماعية التي تحجبه عنهم. عن سفره إلى (شرم الشيخ) وتخليه عن سنةٍ دراسيةٍ في مقابل الحصول على بعض المال والتخلص من القيود التي قد تمنعه من الحلم.

في صمتٍ أشرت إلى النادل، دفعت الحساب. اعتذرت لعصام واتّخذت الصداع والإرهاق سببًا لرحيلي المتسرع الذي لم ينهاني عن التساؤل عن القيود التي تمنع الحلم.. الآن أتساءل عن (عصام)

الكاتب الجيد، لم يرد اسمه بعد في نهاية أي عمل صحفي، تراه يبيع إعلانات للصحف في مقابل التخلص من تلك القيود؟ مع (عصام) كثير من الأعذار لكن يزيد كرهي له كلما زاد إيمان (ريم) بأنه توفي أثناء سفره غير الشرعي إلى إيطاليا وأنا لم أجرؤ على إخبارها بهجره لها...

شهرياري الحبيب، أظنني قد حدثتك من قبل عن (محمود) وعن (جهاد) وعن (ياسر)، ثلاثة أبطال لثلاث قصصٍ قصيرة كنت أنا بها العنصر الذي يستمع إلى مغامرات البطلة أواخر الليل حتى أنام، محتضنة آمالي لعلها تتماثل وأنساك. وأفتح بابًا أوشبَّاكًا على شوارع الحب كما استطاعت (ريم) ولم تكف عن المحاولات، رغم خيبات الأمل كانت تكشف صدرها لخيبات أمل جديدة، فلماذا لم أستطِع أنا الكف عنك، هل لأنك لم تؤذِني كفايةً كما فعل (عصام)؟"

***

جنة عدن حيث أعود إلى غرفتي ببيت المغتربات لأجد (ريم) بانتظاري لابسةً البيجامة وواضعة ماسك غريب اللون على وجهها،

تاركةً سريرها، سادلةً شعرها على سريري، أستلقي إلى جانبها وأتحسَّس أصابعها الرقيقة البيضاء وأتأمل أظافرها المزينة بعناية وذوق فنانة بأكثر من لون زاهر كأجنحة فراشات صغيرة. الآن يحين الموعد ونبدأ بالتبادل في التسميع. نحكي كلَّ ما حدث اليوم ونناقش خطط الغد. ونتمنى لكلتينا أحلامًا سعيدة وآمالًا موفقةً. لك أن تتصور أنني بالفعل كنت أغط في نوم عميق وأهنأ بأحلامي.

(ريم) تركت والديها بالولايات المتحدة لمدة سنتين، تخلت عن منزل أخيها وزوجته لتكون معي أنا!

تخرَّجنا للتو محمَّلين بالأمل.. أيام ربيع كانت، ليتها تعود.

أكتب إليك يا (أحمد).....

مليكي الحبيب

شهريار زماني

ما زلت أذكر ذلك اليوم هناك عند (شط النيل) حيث توقف الزمن، كنا نغني لعبد الوهاب، ندندن سويًّا ولا أسمع إلا صوتك ونشيد الموج.. تلك لحظة نادرة من حياتي لم تمتلكني فيها الوحدة ولا الغربة ولم أهتمّ بالفقدان.

كانت (ريم) تؤنسني لكنني كنت أعاني فقدانك، هي التي دفعتني للاتصال بك وطلب مقابلتك.. لقد علمت صاحبتي أن بمقدور الحب شفائي.. وقد سهلت أنت عليَّ مهمتي وطلبت مني مقابلتك بمجرد أن أخبرتك عنوان حالي، وها أنت ذا تطيبني، وطبت وتلقفتني الطمأنينة لحضنها فنمت وقابلتك في حلم.. نعم سلمت عليك كأنني في حلم.. تحادثت معك كأنني أحلم.. تركت رأسي على كتفك كأنني أحلم.. سألتك: "هل من العدل أن يصبح أناسٌ على سعادة ويصبح آخرون على كرب؟، لما نحن البشر متفاوتون في نصيبنا من الحظ؟" لم تُجِبني، ربما عرفت أن بداخلي تكمن الإجابة، وربما أحسست بتلك القشعريرة التي غزت بدني وأسالت دموعي والحقيقة بداخلي تخبرني أن سعادتي تلك اللحظة الغالية لا يمكن أن تستمر. إننا لن نسهر على شاطئ النيل مرةً أخرى. ربما بحكم أنك لا تنزل النهر مرتين _ وإنني لن أكتفي وستظل رغبة السهر على شاطئ النيل تراودني وتطاردني كما طاردت عبد الوهاب.. سأظل فاقدةً للحظة لم أحياها بعد.. فإنك اقتربت من جبيني فقبَّلتني ربما مواسيًا إيَّاي في معرفتي للحقيقة فتلاشت أمامي تلك العمياء.. سألتني عن الآمال وحدثتني عن أمواج البحر التي تشبهك وعن سكون النيل الذلول الغامض، وكنا نضحك.. وكنت أضحك رغم الجرح الذي لا يزال غائرًا. ثم أخذت تحدثني عن الحرية، الحرية التي أشرت إليها يبدأ

انتهاكها من داخلنا نحن الجيل الجديد المُحطَّم.. ربما يضعون القوانين كي لا يقبِّل مواطنٌ فتاته في الطريق. وها أنا أكتب نقلًا عنك (ولكن هل تقبل تلك الفتاة أن يقبِّلها إذا أرادت!)

لماذا لا تقول لها عندما ترغب في تقبيلها بأنك راغب في ذلك ولما لا تتقبل إعلانك بنيتك إن كانت شجاعة، لماذا تخاف تلك الفتاة وترتعب من تقبيلك في الشارع..

لماذا؟ تساءلت ثم غيرت الموضوع ولا أذكر عما تحدثت ثم عدت إلى غنائك ولا أذكر ماذا أنشدت...

ثم أخبرتني بأنك راغب في تقبيلي.. وأنا.. ماذا كان عليَّ أن أفعل؟

***

حلقتان أسبوعيتان عملت من خلالها كمُعدَّة ومراسلة تليفيزيونية، تلاهما لقاء جبري مع ضابط بأمن الدولة. ثم حلقة أخرى شاركت في إعدادها بعد تقدُّمي بالاستقالة.

أما عن الحلقتين، فبالرغم من كل الجدل الذي أثير آنذاك حولها فأكاد أجزم ألا يتذكرهما أحدٌ من المشاهدين أو المصفقين والمتهجمين

والمؤيدين والمعارضين الآن. اللهم غير مقدِّم البرنامج وبعض العاملين عليه، من كانوا مثلي ومثل مقدم البرنامج.. كانت تلك أولى تجاربهم الإعلامية.. بالطبع أنا من قررت أن تكون الأخيرة.

تلك التجربة معلقة في ضفائري لا تنسل..

كان دوري في الإعداد كتابة تقارير المراسلين والمقدمة التي سيلقيها المذيع في بداية الحلقة. وكانت عن "أطفال الشوارع" في البداية تصورت أن الحلقة تتحدث عن هؤلاء الأشقياء ذوي الملابس المهلهة والابتسامة الخبيثة، كلما خلوت إلى فنجان قهوتك يباغتونك بمقاهي وسط البلد. وتشتري منهم اللبان والمناديل بضعف الثمن. خصوصًا أن نقطة الالتقاء لفريق العمل كان بمقهى (البستان) بشارع (شريف) بوسط البلد هناك وبالتحديد ذلك اليوم، تعرفت على (حنًّا) الذي لا يتأتى في خيالي إلا مبتسمًا.. حتى عندما يشكو حاله وأحوال بلاده (حنًّا) يبتسم. عندما تسأله يقول: "ليس على المصري حرج".

أقول: "يابو كرش رقيق وصغير". فيزوم كطفلٍ يمثِّل الزعل..

فأقول: "لك (كرش) لأنك تبالغ في تناول النشويات، ولأنك واقع في غرام الجبن واللبن ولك حدقتان متسعتان ومخيفتان لأنك تنتحر بشرب التكيلا كل ليلة لتنسى أوهامك عن الحرية.. وشعر رأسك وذقنك طويل لأنك ترتعب من مقص الحلاقة كما ترتعب من

السكين فتفضل الحرمان من لذة الطعام بدلًا من ذبح الحيوانات بآلاتٍ حادةٍ. وابتسامة لئيمة لأنك ربما تُخفي سيجارةً حشيش ملفوفة في علبة سجائر المارلبورو.. فيرد (حنًّا) هذه حقائق ولكنك ليس عندك أي حق. وهنا يدعي أنه مخاصمني بتحريك عظام كتفيه وذراعيه في اتجاه رقبته"..

ولا أقول له إنني آلفت وجود "كرشه" كلما ضمني مواسيًا، وأتطلع إليه لأنه نباتي وأؤمن أن في ذلك نبلًا ما وإنسانيةً متحقِّقةً، وأرى عينيه العسليتين لامعتين في شجنٍ أخَّاذ. وأغار من شعره الطويل وابتسامته الساذجة.. أما عن قوله يا مؤمنة في بداية كل حوار فذلك يدهشني كل مرة.. كما يدهشني اتقانه لرقصة الصالصا رغم وزنه الثقيل (يحرك ساقية برشاقة في جميع الاتجاهات ثم يلف دورةً كاملةً ويحلق بعيدًا بعيدًا في الفضاء الذي يفصل مكتبي عن مكتبه في قاعة المنظمة العربية).. غريب هو، يبحث عن إنسانيته في الحب.. في التصوُّف وفي العبث.

كان (حنًّا) حينئذٍ قد مضى على اشتغاله بالإعداد ستة أشهر، ومثلي على تخرجه ثلاثة أشهر فقط. لكنة قادنا إلى وجهٍ آخر لأطفال الشوارع. نراه يوميًا ولا نتفحصه أو نبصره. أطفال الشوارع

باعتبارهم سَكنى شوارع. ذلك النوع الذي يفترش الرصيف العاري الملتهب في الصيف ويحتمي تحت الكباري من برد الشتاء ويبحث بين القمامة عن لقمة تسد جوعه.

أجبرني (حنًّا) بأنِ عليَّ السفر إلى عالمهم..

***

حينما تلاقت عيناي بعينيه، لم يكن عليَّ أن أستمع إلى كلماته لأفهم معاناته.. أيقظناه من نومه تحت ذلك الكوبري. كان هناك عينا إنسان مندهشة ومتخوفة.. رائحة بول وبراز تفوح من جسدٍ ضئيل.. جروح متقيِّحة ممتدة على وجهٍ ويدين متغلغلة في كلتا الساقين العاريتين وقدمين ترتديان جوربين من الفطريات. شعر طويل يتخلله قرع بني من ناحية أذنه اليُمنى بدا نتيجة عفن جلدي أو حرق قديم.

كل تلك العناصر الشبه إنسانية نطقت بأنها تُدعى: (صبحي).

ساءلت نفسي عنه هل فكر وهلة كيف أتى إلى العالم؟.. لماذا يعيش؟ وإلى أين يؤخذ؟ وإلى متى يصارع حيوانات الليل ليبقى؟

هل يطرح الأسئلة؟.. هل يعي معنى المفردة "الحياة"؟

افترش (حنَّا) الأرض أمامه وأمسك بيديَّ وأجلسني إلى جواره. وبدأ زملاؤنا التسجيل.

سأل (حنَّا): "كيف تعيش؟"

ببساطة سُئِل وببساطة أجاب

: "من الزبالة".

في البداية، عندما كان صغيرًا وتركه أباه نائمًا تحت هذا الكوبري بزهراء مصر القديمة ورحل، عطف عليه الكثيرون وخصوصًا من كانوا يركنون سياراتهم هنا ليلًا من أهل المنطقة..

كان يحمل للأهالي أشياءهم الثقيلة، يكنس الشارع أمام المحلات.. ويحصل على حسنته. مع الوقت بنى عُشَّه تحت الكوبري ووضع فيه بعض الأشياء اللازمة ليعيش وكانت تلك الأشياء هي جميع ممتلكاته، ربما أغلاها بطانية صوف ومرتبة قديمة استغنى عنها أهل شاب في مثل عمره فعطفوا عليه أما أخشاب عُشّه فاشتراها من ورشة بـ(تحويشة سنين).

لكن الكيان لم يكن يعلم أن الجميلة ابنة لواء..

كانت تمر أمامه كل صباح لسنوات.. احتاج فقط أن تنظر إليه. ولم يطلب منها غير الالتفاف.. أصبح ذلك اليوم وبينه وبينها خطوتين لكنها لم تلتفت إليه.

أتاه مُخبر في الصباح التالي ثم مكث في الحجز عدة شهور...

"عندما خرجت إلى العالم وجدته جديدًا.. حيث آلت ممتلكاتي إلى أطلال وعندما التفت حولي استجدي تفسيرًا كان الجميع يبعثون إليَّ من بعيد نظرات متوجِّسة قصيرة ثم يعاودون انشغالهم بمجرد أن أتوجه إليهم".

أخبره الحاج صاحب مكبس البلاستيك أن اللواء أمر بحبسه لأنه (عاكس) ابنته وخوفًا منه، أهل المنطقة ينبذونه، ثم عرض عليه العمل معه، وبالفعل اشتغل الولد يجمع البلاستيك من الشوارع وتجمُّعات القمامة ومكبات النفايات.

"حتى أصابني مرضٌ جلدي مازالت آثاره في رأسي". أشار إلى المنطقة المسلوخة تعلو أذنه "لم يعد أحد يطيق رؤيتي.. حتى الحاج لم يعد يطيقني، طردني.. على الزبالة أعيش..."......

.....

....

والباقي ربما سردته لك. في تلك الليلة الغريبة الساحرة بلون الحنين الأسود لون عينيك ولون شاطئ النيل.. أشكيك ذلَّ مهانة وغربة قاسيتهما في مقر أمن الدولة، وأبرِّر لك أو لنفسي قرار استقالتي من وظيفة الحلم..

إليك.. زينب

تركت الأوراق بجانبي وتدثرت في فراشي وأطفأت نور الأبجوره البرتقالي...

(عندما إن نظر إليَّ مباشرةً في عينيَّ حتى سرت في أطرافي الرعشات، جربت استنفارًا كاملًا في عضلات جسدي لكنني تسمَّرت كفأر.. ترجم حدسٌ بداخلي أن معنى النظرة شهواني وهاجس قال

"حيواني". وتمنيت أن يُحدث (حنًّا) أي إشارة بأنه موجود لكنه لم يفعل. ظللت متصلبةً كمسمار.. حتى دنت يده إلى يديَّ وهو يقول: "أنا أرى الكلب حين يموت يُترك على جانب الطريق حتى تقضي عليه ديدان الأرض والذباب والفئران.. هل إذا مت يحدث لي ذلك؟"

وقبض على يدي...)

***

-٨-

كانت ساعة متأخرة من مساء ليلةٍ رمضانيةٍ، وكانت ثلاث حلقات من البرنامج قد حققت أعلى نسب المشاهدة محطِّمةً التوقعات عن نبذ مشاهدي التليفيزيون للبرامج النكدة في الشهر الكريم. وكنت أحضر السحور وريم تستلقي على ظهرها في الفراش، وسماعة هاتفها المحمول في أذنها تنصت لغزل حبيبٍ جديد، وقد بدأت أصداء شهقاتها تتجول من غرفتها وحتى المطبخ. عندما ثار جرس الهاتف على النضد الصغير. ورفعت السماعة. وعرّف المتصل نفسه. ضابطًا بأمن الدولة يود مقابلتي صباحًا في مكتبه ثم أغلق السماعة.

هرولت في الردهة، فوجئت باب ريم التي كانت استلقت منفرجة الساقين، حاسرة قميص النوم أعلاهما، أخبرتها بما للتو حدث. فطمأنتني وأكدت عليّ إنني إذا تأخرت أثناء زيارتي لمقر أمن الدولة ستقوم بإبلاغ خالها اللواء بالجيش، وأنها لابد أن تكون زيارةً وديةً بدليل اتصال الضابط. فلو أنهم أرادوا القبض عليّ لفعلوا بلا استئذان ولا اتصال.

في صباح اليوم التالي، توجهت إلى مقر أمن الدولة بمديرية أمن القاهرة. وعلى الباب الرئيسي عند مكتب الاستعلامات أخبرت أمين الشرطة، الذي لم ينفك يراقب علبة السجائر على حافة النضد الرخامي، عن موعدي. رفع سماعة التليفون طالبًا الضابط. ثم قال: "حاضر يا باشا" وهو يلتفت إليَّ للمرة الأولى وتفحصني بنظرات سريعة. عندئذٍ بدأت جفوني ولم تكف عن الحركة، وبوغت جبيني ومقدمة رأسي بصداعٍ حاد.

كان عليَّ أن أقطع ممرًّا طويلًا يفصل بين حجرات متقابلة على الصفين وينتهي بنافذةٍ زجاجيةٍ مرتفعة. البياض يشع من كل اتجاه. بياض الحوائط التي تفصل بين باب وآخر. بورسلين الأرضية. الأبواب الخشبية المدهونة. رداء أمين الشرط الذي يصحبني. أشعة الشتاء المضيئة المُرسَلة من الخارج تخترق زجاج النافذة وتوقظ بريق الثلج على اللون الأبيض. خطوت نحو الهزيمة واستقرت السهام الثلجية بجسدي وانساب البرد إلى كل خلية. دخل أمين الشرطة في الغرفة الأخيرة من الممر وتركني، والتف الكفن الأبيض حول عيني فغشاها، وكأنني بانتظار حساب الملكين.

دخلت، خلف المكتب وقف الضابط الأسمر العريض المنكبين بابتسامةٍ عريضةٍ على وجهٍ قبيح. شفتان غليظتان وعينان غائرتان وعظمة أنف صغيرة ومتوارية تنتهي بفتحتين مثل زيتونتين سوداويتين ينبثق منهما شعر كثيف. سلم عليَّ وأطال ضغطة يده الثقيلة الضخمة على يدي لوهلةٍ مرت كأنها الدهر مرَّ.

طوال الحديث لم تفارقه الابتسامة، وطوال الحديث لم تنفك الابتسامة تستفزني وتولج في أنفاسي الاشمئزاز والتقزُّز لأنها تتشارك هواء الغرفة المغلقة مع الشمبانزي المبتسم.

وسأل الشمبانزي بعدما طلب لي القهوة وسألني عن الحال والصحة: "ما مدى معرفتك آنسة زينب بمقدم البرنامج؟"

- "كما يعرف الجميع عنه، لم يجمعني به حديث حتى. أنا مجرد مُعِدَّة مبتدئة".

- "وماذا عن حنَّا، حسب معلومات أنتما تعملان معا في مواقع - ماذا تطلقون؟ - المراسلة؟"

- "ليس بالضرورة، المخرج يقسِّم فريق العمل كلَّ حلقةٍ".

- "ولكنكِ عملت معه".

- "أعددنا فقرتين".

- "وفي خلال الحلقتين ماذا عرفتِ عنه؟"

- "لا شيء. هو مضحك وساخر ويقلد الأطفال يعرف كثيرًا عن أطفال الشوارع، ويصلِّي في الكنيسة"..

وهنا انفجر الشمبازي ضحكًا، وتناثرت ضحكاته الغبية في أنحاء الغرفة حتى أن بعض الضحكات اصطدمت بصورة وزير الداخلية المعلقة خلف المكتب، فمالت الصورة لليمين قليلًا. ثم نزع القناع المبتسم من وجهه وتغيَّرت سحنته من البشاعة إلى البشاعة المفرطة وقوس شفتيه نحو ذقنه وقال: إما أنكِ تتذاكين أو أنكِ غبية، وكلا الاحتمالين ليس في صالحكِ: "أنتِ الآن في مقر أمن الدولة وبحوذتي أنا، وعليكِ أن تتعاوني معي لإرضائي. ولتشغِّلي الماكينة أعلى رأسكِ أو تنفذي الأوامر. يبدو أن والدكِ الموظف الحكومي نسي وهو يرقع حذاءَه المهلهل للمرة الخامسة عشرة أن يعلمكِ شيئًا عن احترام الحكومة"..

أظن أن تلك الجملة كانت مفتتحًا لخطبةٍ بغرض إهانتي واستنزاف كرامتي. في الغالب لو كان الحظ حليفها لتكتمل لما انتهيت أنا من البكاء حتى الإغماء. ولكن ضابطًا فهمت أنه أعلى رتبة اقتحم الغرفة، كان طويلًا حتى أنه انحنى قليلًا ليمر من الباب، ثم أشار إليَّ

كأنني كمبيوتر جديد، ولكنه ليس حديث الصنع وهو يقول: "البرنامج الجديد؟"

فأومأ الشمبانزي بالإيجاب.. فقال الطويل: "هذا ما كان ينقصنا (الممثلين) يا سيدي.. وإذا تحدث أحد معهم سيهرعون إلى الرئيس وأنت تعرفه كريم معهم. أو يستغلون شعبيتهم ليولولوا أمام حثالة التليفيزيون عن حرية الإبداع. هؤلاء المدَّعون يظنون أننا متفرغون من أجلهم. أتعرف كم تقدَّر ثروة ابن الكلب والله لأمتصه حتى يشحت المليم فيقبله. لا تضيِّع وقتك معها واتبع البروتوكول إياه.

قال (إياه) كأنه مصطلح دقيق، مألوف بالنسبة إليه كالطبيب في غرفة العمليات الذي ألف مشرطه وينادي الممرضة باسطا يده أن تناوله إياه، ببساطة وبدقة كأنه مصطلح قانوني معروف دوليا...

وخرج الطويل كما دخل يدحرج من ورائه ذيل غطرسته دون سلام. وما أن تيقَّن الشمبانزي الذي لم يفتح فاه منذ دخول الطويل الاستعراضي، حتى أزاح تنهيدات عميقة، ثم تناول سماعة الهاتف واستدعى أمين الشرطة. وحضر الأمين خلال دقيقةٍ لم يلتفت إليَّ فيها الشمبانزي، وهو ينقر على مفاتيح هاتفه المحمول، فقال وهو يشير إليَّ بأصابعه دون أن ينظر تجاهي: "غرفة ٦٠".

مشيت مرةً أخرىٰ في ممر كفن الموت الأبيض حتىٰ وصلنا إلىٰ بهو تتوسطه طاولة دائرية فخمة يستقر فوقها تمثال من الجبس علىٰ الطراز الروماني لم ألتقط ملامحه. أنزلني الأمين علىٰ الدرج لعدة طوابق وحسبت حين انتهىٰ الدرج ومشينا إلىٰ بهو آخر وصولنا طابق تحت الأرض. وكان الأمين يضغط علىٰ ذراعي بشدة حتىٰ أنني طلبت منه أن يلين قبضته قليلًا فتجاهلني. أما البهو الذي وصلت إليه فكان في حجم البهو الذي نزلت منه تقريبًا ودلفت منه علىٰ ممرٍّ يشبه الممر العلوي، لكن الحوائط بالأسفل كانت أسمنتيةً ومتآكلة، والأرضية يكسوها ملح الرطوبة علىٰ الجوانب، والضوء ينبثق من مصباح كهربائي وحيد يتوسط البهو الذي توسطه سرير معدني قديم اضطجع عليه أمينا شرطة يلعبان الورق. ولم يكن هناك بنهاية الممر نافذة...

دفعني الأمين عند باب الزنزانة إلىٰ الداخل وأغلق الباب الخشبي ورائي ليحل الظلام. واجتاحتني رائحةٌ نفاذة لمرحاض عام في حي فقير وقذر. وبحثت في شنطة يدي عن هاتفي المحمول لأنير بشاشته الزنزانة قليلًا لأعرف ما تحوي ولكنني لم أجده. وحاولت تذكر في أي مرحلةٍ صار من الممكن أن يسرقوه. وقلت لنفسي: "عندما مرت الشنطة عل ىٰ جهاز التفتيش بالأشعة" واستسلمت للظلمة. وجلست خلف الباب وأسندت عليه ظهري. لأنه المكان

الوحيد الذي رأيته عندما فتح الباب، ولم أتجرأ على استكشاف الزنزانة في الظلام ورائحة المبولة متفشية بها.

مرت الساعات وأنا أفقد عقلي مع كل سؤال.. ماذا سيحدث؟ إلى متى سأبقى هنا؟ هل ستنجح ريم في إخراجي كما وعدت؟ ماذا أفعل إذا استجوبوني مرةً أخرى؟ هل أسايرهم حتى أخرج؟ هل سيجبرونني على التوقيع على أوراق ليضمنوا ولائي؟... لم تتوقف الأسئلة ولم تطمئنني إجابة...

قصرت أنفاسي مع مرور الوقت رغم فقداني القدرة على تمييز الرائحة الكريهة. وانحشرت في جوفي الصرخات وخدرت عظامي. وتصلب وجهي داخل كماشة حديدية. وأخذت أضرب برأسي على الباب لعل الألم يتوقف. لكن ذلك لم يحدث. ومرت ساعات أخر.

كنت أنصت لوقع خطوات السجان وهو يذهب ويجيء أمام زنزانتي، كأنه برهاني الوحيد على وجودي، كأنني قد أصير بعد قليل ذرةً مُهمَلَةً في فضاء معتم.

كانت الساعة المنقضية طويلةً كعرقلةٍ في غشاء الموت، كاصطفاف الأنفس في الرمق الأخير

وكانت أبديةً كإسطوانةٍ مهشمَّةٍ لعبد الوهاب في علبةٍ مزخرفةٍ يملكها جدي، وكمنجة مهجورة كانت تعزف لي وللعذاب ولهوىٰ قديم.

اقترب وقع الأقدام. لم أتوقع أن يُفتح الباب الذي تدحرجت خلفه لما انفرج. يبدو أن الشرطي لما خمَّن أنني خلف الباب دفعه بقوة حتىٰ كوَّمني بين الباب والحائط وضغط بكل عزم ليعصر أشلائي بين كفتي الرحىٰ، حتىٰ صرخت فترك الباب فارتميت علىٰ ظهري وأنا أتوجَّع وأبكي، فجذبني من شعري وأوقفني أمامه. فانتفض جسدي وتوقفت عن التنفس من شدة الذهول. ثم جذب ياقة المعطف الصوفي الأسود الذي أرتديه، وخلعه عني في لحظةٍ لا ثاني لها.. لم تحملني ساقي فهويت علىٰ الأرض ثم أدركت وأنا قاعية تحت قدميه أن حياتي كلها منوطةً بما سيحدث في اللحظة التالية. لملمت أشلائي المرتعشة لأقف من جديد. باغته ببصقةٍ علىٰ وجهه فصفعني علىٰ وجهي صفعةً قذفتني لحسن حظي علىٰ الحائط، لم أقع. واستندت علىٰ حائطي أثبت جسدي للوقوف. ثم فك أزرار بنطاله وتوجه للمبولة علىٰ الجدار المقابل وتبول. لكنه تبول في جردل مجاور. صار الباب مفتوحًا ليُدخِل شعاعًا من الضوء. شكرت حدسي الذي منعني من

التجول في تلك الزنزانة. كان الجدار الجانبي الذي أستندت عليه خلف الباب هو الجدار الوحيد الفارغ في الغرفة التي كانت مساحتها تقريبًا مترين في متر ونصف، والجدار الآخر به قاعدة مغمورة بالغائط.

حمل الشرطي الدلو بعد أن فرغ وألقى بما فيه على وجهي ثم خرج دون عودة وهو يقصفني بنظرات ناقمة. حمل معطفي وتركني لبرد الزنزانة الرطبة وبرد الشتاء.

وخرجت في صباح اليوم التالي بتوصيةٍ من خال ريم بعد أن قطعت صديقتي عهدًا أن أستقيل من البرنامج قبل انقضاء يومين.

***

-٩-

(عيناه العسليتان مزدانتين بالحزن.. كيف أُفهِّمه! لقد ابتعدت لأنني لن أتحمل فقدانه.. وضعت يدي على رقبته القصيرة فاقتربت مني أنفاسه كلما لامسته كلما صار إنسانيًا... لكن ملامحه تبقى على شراستها.. مستلقية على الأخضر أتأمل عينيه الحزينتين وشعره الذهبي الكثيف وبشرته النحاسية وعضلاته التي لا تتسع يدي لها..)

...كنت أبحث ملاذاً عما يلهيني ولو لساعة عن التفكير بعمق... عن إدراك ما يدور حولي.. كانت لحظة تمنيت فيها تلاشي واقع بصدده مستقبلي. بعدما وقَّعت علي فسخ عقدي مع القناة ومنتج البرنامج، اعتذرت وتحجَّجت بمرض خطيبي غير الموجود، والذي اشتريت خاتمه الذهبي بنفسي خشية أن أقضي على فرصٍ أخرى ممكنة ربما تقدم كما نصحتني (ريم). لعل الحال يتغير والرتب تتبدل وينصلح النظام، لذلك طمعت وقتها في أن أبقي الباب مواربًا مع علاقاتي الإعلامية - حدث ذلك منذ ساعة وكان عليَّ أن أهرب من خيبة الأمل التي تتباهي باستعراضاتها أمامي طوال طريق العودة للأسف ولم تنفع كتب سلامة موسى كما فعلت سابقًا...

كنت أنقر.. أنقر.. أنقر علي الريموت. قناة دينية والشيخ يصرخ: "حجابكِ لا يكفي" والمتصلة تسأل عن شعر الحاجب.. قناة إخبارية.. أسفرت الانفجارات عن مقتل أحد عشر شخصًا، والمذيعة تبتسم إلى الكاميرا.. قناة منوعات وراقصات التعري وطبقة صوت وحيدة وكلمات معادة وألحان متشابهة وتوزيع بدا لي كيف تم في خلال دقائق.. وأفلام حديثة تُبث مئات المرات في الشهر ونجوم الشباك تصرخ.. تصرخ ثم تضحك على ما صرخت عليه...

حتى شاهدت ذلك؛ الأسد يداعب لبوءته يضعها بين رجليه ويتشقلب بها.. تتمرغ على الحشائش الخضراء الندية في دلال، فيزغزغ بوجهه كتفها وبطنها.. كأبٍ يداعب طفلته الصغيرة بأن ينفخ في بطنها.. مشهدٌ لم يتكرر أمامي مرةً أخرى قط. رغم أنني ظللت لشهر أشغل التلفاز على تلك القناة في انتظار ظهور الأسد، وخلال أوقات الانتظار أدركت إحساسًا يخصني وحدي أن ملك الغابة هو أكثر الحيوانات إنسانيةً.

كنت أحلم.. أحلم بأسدي الذي هو في الأصل شاب خارق كما في الحكايات السحرية.. تلك الأحلام الصبية التي لا تفارقني أبدًا، تأتيني عادةً كلما خلوت وحدي.. تواسيني.. تتمشى معي.. تطبخ معي.. ترتب معي الغرفة البيضاء بلون الثلج الحزين. تجمع معي

الخطابات المتناثرة تحت الكنبة وفوق السرير.. تسمع معي الموسيقى بل وترقص معي أيضًا.. تنزعني بعيدًا عن الوحدة...

***

بعد مرور بضع دقائق من جلوسي بالقطار ـ هذه المرة أنا مسافرة نحو أرض ميلادي وطفولتي ـ سمعت زمجرته كان صوت الزئير يعلو بها أكد إليَّ ظنوني وجعل قلبي يطير ويتركني إلى المركبة المجاورة، وقد كان عليَّ اللحاق بقلبي.

بدت لي كمشادةٍ كلامية غليظة بين شابين. رأيت أحدهما ولم أرَ الآخر. وكادت تنذر بوقوع اشتباكاتٍ عنيفةٍ مما دفع بعض أولاد البلد للدخول بين البصلة وقشرتها في سبيل إنقاذ أية خسائر قد تعكر صفو رحلتهم. يبدو أنه كان جادث تحرش طفيف؛ فقد كان الزئير يكرر "مثل أختك". ها قد نجحت محاولات الفض من أهل الخير بين الشابين. وانفض الجمع الذي منعني عن رؤية الشاب الآخر.. وتأكدت من وجوده، وهل كان من الجائز أن أخطئه!

ناديت على (أحمد).. فالتفت نحوي.. ثم ابتسم وأومأ إليَّ ورفع ذراعه العظيم وتناول حقيبته. وهنا يأتي وجه التشابه الثاني بعد صوته

الجهير الذي يشبه زئير أسد؟ ذراعه الذي أعتقد إنه يستطيع تدمير أي شيء بها. أتى بالحقيبة.

سلَّم عليَّ وجلس أمامي...

تأملت ملامحه كما كنت أفعل في فصل المدرسة الابتدائية. بحثت عن عينه القديمة وعن الهالة السوداء الغائرة تحتها، أما الأخيرة فكانت قد تلاشت إلا قليلا. وأردت أن أسأله أين هي؟ وكيف حَفرت تحت عينيّ زوج منها؟ أفهم أنك عشت تجربة مُرة لم تحك لي عنها إلا قليلاً. هل كنت تعاني من الأرق والكوابيس كما أعاني الآن يا أحمد؟ إذن أخبرني، كيف شفيت؟

من هو أبوك؟ كيف أوشك على رمي ضناه في الترعة المحمودية من أعلى كوبري للمشاة في البلدة؟ قلت لي أن هجران أمك لكما ورحيلها عن منزلها هو السبب. قلت لي: كانت ساعة انهيار. لكن لماذا انهار أبوك؟ هل لأنه لم يعرف كيف يتدبر الاعتناء بطفل في العاشرة والاهتمام بأعمال منزلية؟

كيف تقول ذلك!

تفعل أمي ذلك طوال الوقت، حملتنا وأرضعتنا وغسلتنا وسرّحت شعر أختي الناعم وشعري المجعد ونظفت المنزل كل يوم

وطبخت لنا كل يوم أكلة، وذهبت إلى عملها صباح كل يوم. وترقت حتى مدير عام. ولم تشتك يوما، ولم تضربنا، فقط كانت تصرخ ثم تعود لتطبطب على الأكتاف حتى نتجمع كلنا سويا على طبلية الطعام.

كيف سامحت أباك؟ كيف سامحت الزمن وتغاضيت عن سلب أيام طفولتك؟

كدت تُقتل، كيف شفيت؟ انكسار أحلامي يكاد يقتلني كل يوم، فهل ذات يوم أُشفى؟

لم أسأل أحمد أياً من أسئلتي...

القطار لم يقم بعد، وقد يأتي شخصٌ ما ليجلس بجانبي وقد يظل المقعدان بجوار كلٍّ منا خاليين، من موقعي، الرؤية أوضح، ولكنني أطمع في الحديث معه ـ إذا بقيت مكاني فعلى جميع من شمله محيط دائرة نصف قطرها المسافة بين فمي وأذنيه ومركزها أنا، أن يشاركه سماعي. كنت أتأمل رقبته القصيرة وعندما رفعت عينيَّ إلى عينيه وجدته يتفرَّسني بابتسامةٍ فشلت في تمييزها.. أهي ساخرة أم مستغربة، حتى قال: "سرحتِ.؟". فضحكت على نفسي واقترب رجلان استهدفا المقعدين الخاليين. فهممت مسرعة وجلست إلى جوار (أحمد) فارتطم كوعه بصدري، فاعتدلت مبتعدةً عنه بضعة

سنتيمترات بجلستي. ولكنني كنت في غاية النشوة وشعرت أن حلم أستاذ "أسد" لا يزال يراودني...

سألني إن كنت عائدةً في زيارةٍ إلى أرض الوطن ـ هكذا قال ـ وذكَّرني بالوطن الذي لا أُوشك على نسيانه منذ آخر رحلة وإلى الآن والأصوات لم تفارني، ترشدني إلى الطرق المنتقاة والمبتغاة إلى حيث أستطيع أن أفلت من عنوستي.. أأنا بحاجةٍ إلى زوج فعلًا كي تنتهي وحدتي!.. لو أن هذا صحيح لرضيت بأول عريس؛ لو أنني أظن ولو بنسبةٍ ضعيفةٍ أنه قد يستأصل ذلك الورم الأنَّان الذي تغلغل بداخلي وتقاسم وتكاثر وانتشر أعمق فأعمق ثم ذاب.. ولم يعد يُرَى بالعين المجرَّدة.. أصبح جزءًا من كياني ودائمًا يثبت وجوده.. لكني إلى جانبك الآن وأحسبه قد سكت وتلاشي فهل تشعر؟

وجاوبته: "إنها عودة عمل". تعجب واضطررت إلى الشرح: "المنظمة تختارنا ثم تقسمنا إلى فرقٍ عشوائية مؤلَّفة غالبا من خمسة محليين ومبعوث أجنبي من هيئاتٍ دولية تختص بمراقبة الدول الموقِّعة على معاهدات ومواثيق حقوق الإنسان حول العالم، وذلك لتفقُّد أحوال السجون بالدول العربية. المفروض أن الفِرَق والأسماء والمواعيد والوجهات سرية حتى إنهاء الإجراءات الرسمية الخاصة

بالحكومة. لكنني دومًا أظن أن اختيار سجنٍ محدَّد لا يتم بطريقةٍ عشوائيةٍ، بل بحسب أولوية أن تتم إثارة القنوات الإعلامية قدر الإمكان كنوعٍ من الدعاية أو جذب انتباه الجماهير أو اكتساب سلطة شعبية أو دعم دولي، لست على يقين يا (أحمد)". سكت قليلًا وابتسم بخباثةٍ ثم قال: "إذن، أنتِ مصوَّبة تجاة سجن دمنهور؟"

_ "نعم، (مجدي محمد الشاه) و(محمد يس عبد السلام) و(يحيى عماره الطائر).. ثلاثة منتحرين بسجنٍ واحدٍ وزنزانةٍ واحدةٍ حسب بعض الأقوال.. تُرَىٰ ما الذي يدفعهم إلى الموت؟ أي عذابٍ واجهوه إن افترضنا أن ادِّعاء انتحارهم وليس مقتلهم صحيح؟ معلوماتي تخبرني أن اثنين منهم من كفر الدوار، ولذا لم أطلع على صورهم حتى الآن.. يرعبني ذلك، يقولون (بلديات) ولم أدرك قيمة تلك العلاقة من قبل. قد أتذكَّر وجه أحدهما يومًا ما مرَّ أمامي أو توقفنا نتبضع من نفس المتجر. في كل عيدٍ في كفر الدوار نتبادل الفرحة والبالونات الملوَّنة.. نهلل ونكبِّر سويًّا في تلك الساحة الصغيرة بالنسبة إلى أعدادنا. وهناك تتلاقى الخطوط ونحفر في ذاكرتنا الوجوه قبل الأسماء.

_ "إذن أنتِ وحسب أقوالكِ لم تتعرفي على الاسم الأول!.. يا (زينب)!.. (مجدي محمد الشاه) لقد كان زميلنا بالابتدائية، عمومًا أنا

أستبعد اعتقاله بغير وجه حق كما تدَّعي الصحف اليوم وأمس. لقد كان معلَّقًا من رقبته منذ مولده حاملًا حياة أسرته الإجرامية فوق رأسه".

عندما نطق (أحمد) الاسم مِتُّ بداخلي..

هل لي أن أحتمل الحياة بعد الآن؟ يقول كلام عن البكاء! لماذا يتحدث عن البكاء الآن!.. أي كلمات تلك يوجِّهها إليَّ؟ ماذا عن الذكرى المتجلِّطة بقلبي وتنفرد به مولدة دقات غير عادية؟.. دقات ليست للحياة.. دقات متفردة، لحنها كئيب متمرد وغير لائق... الآن تقرع طبول الموت بداخلي فلأمُت.. فلأمُت أو لن أتوقف عن البكاء.. أي ضمير قد يعيش بداخلي بعد اليوم!!..

***

لطمني على وجهي، لطمتي الأولى والأخيرة، الغريب أنني لم أعترض، لم أبكِ، لم أثُر أو أصيح، فقط صمتُّ، ولم أرَ غير الظلام لبضع ثوانٍ. أسقط الوجعُ حبةَ الفول السوداني من فمي. بعد دقائق انتقلت إلى مقعد آخر كما أمر. لملمت القشرَ بجيب الحقيبة الواسع

وانتبهت أن الجميع ما زالوا "قيامًا" لم أسمع كلمة "قيام" كنت تائهةً في الضحك مع صديقي الذي أتشارك معه التختة والسوداني. لم أشعر بالخزي الذي اعترى (مجدي) فجعله يبكي نيابةً عني. أهذا لأنني كنت أحبه! هو صديق والدي الذي لم ينجب وأستاذي الذي يؤمن بي وجاري الذي يقطن في المبنى المقابل وأصبح مدرسي الخصوصي بعد حادثي المشئوم في منزل (رحمة) وتغيب (أحمد) الدائم عن المدرسة. كانت له عادة تعصف بخيالي نحو أبعد أمل، أن يذيِّل حديثه مع أبي بكلماتٍ في عشق زوجته العاقر على اختلاف مواضيع محادثاتهما. وعند ذكره اسمها يتلعثم قليلًا وتشع قسمات وجهه طاقة حرارية ثم تزوغ عيناه إلى مكانٍ ثائر الغموض، حتى تنعتَّق كلمات قد تكون قصيدةً رغم أنها صيغت بوصف تفاصيل بسيطة، عن قبضة القلم في يدها اليسرى ولعبها بفقاقيع الماء بينما تغسل الصحون وهمهمات الأغاني تعلو قبل تذوق الطعام الذي تطبخه. بعد الظهر زارنا في المنزل وهمس إليَّ أثناء تناوله الشاي بأنني يجب أن أبتعد عن (مجدي المتشرد). وسألني كيف يكون طيبًا مثلي وجديرًا بصحبتي في حين أن والديه مجرمان يشدان الرحال إلى مكة بغرض سرقة المعتمرين والحجاج؟ فهل يرضيني ذلك؟

وقد كان ما أراد..

اليوم التالي جاءني (مجدي) أثناء الفسحة، يشكوني غيبة والديه التي طالت تلك المرة.. كان يتساءل عن قدرته وأخيه الكبير (جميل) على الاعتناء بنفسيهما والاعتماد على ما بينهما من حبٍّ وثقة. نعم، هذا ما أذكر، قال "حب وثقة". وحكى لي عن تقاذف أعمامه السباب ليلة أمس، وتنصُّل كلٍّ منهم من كفالتهما ـ كيف لم أتعاطف معه وقد كان على وشك البكاء؟! ـ استمعت إليه دون صبر وبنصف وعي، وقد ذهب تفكيري إلى طلب الأستاذ. روحه الخفيفة كطيرٍ شجي أحست بزهدي عنه ولم يعاود التحدث معي مرةً أخرى.

كنا في الصف الخامس الابتدائي. تاه عن ذاكرتي اليافعة ولم أَرَه بعد نهاية المرحلة الابتدائية إلا بعد أربع سنوات في الطريق. فقط لحظات مرَّ خلالها أمامي وحينها تذكرت كلَّ ما حدث. ظل نحيلًا كما هو، لكن بشرته اكتسبت بعض السمرة وكان قد أصبح أطول مني، أحنى رأسه نحو أرض الرصيف.. وكأنما يتحاشى التقاء عينينا.. ربما كان يعفيني من السلام.. تمررت بعدها كلما قابلت جاري كيف علَّمني بتلك السهولة تلك الخسَّة!

_ "أول ما قرأت كانت رواية مرتفعات وذرينج لإميللي برونتي وقرأتها مع (مجدي)، كنا نجلس بأحد الحقول خلف المدرسة نفترش الحشائش الخضراء ونتلو فصلًا كل يوم"..

_ "حقًّا! لم يبدُ عليه أي اهتمامٍ بالقراءة!" قالها (أحمد) في استنكار.

_ "كنا صغارًا.. لم يبدُ عليك أيضًا أنك قد تغدوا شاعرا. وكنت مستمرًّا في الرسوب بالامتحانات الشهرية".

***

الشقة المتهالكة بالدور الأرضي صامدة. وكل أثاث البيت لم يزل كما هو ولم يتزحزح عن مكانه سنتيمترًا واحدًا ولكن أضيفت صورة ل(مجدي) وهو واقف يبتسم، يسند ذراعه اليمنى على أسد يبتسم هو الآخر بدوره، وينظر إلى (مجدي) كمن ينظر إلى صديق عمره. وخلفهما غابة خضراء سحرية، تتخلل أشجارها العالية أشعة ضوء لازوردية.

الفوتوشوب لم يخفِ لا نحولة ولا شقاوة عينيه. لم يخف طلة روحه الآسرة.

سور الشرفة الذي كان يرهقني تسلقه قبلًا، يبدو لي اليوم قصيرًا. وتلاشى سهلٌ أخضر فسيح طللت عليه من تلك الشرفة منذ زمنٍ. والمباني الشاهقة حجبت أشعة الشمس عن الغرفة وتركت إضاءتها خافتةً.. ورأيت كلّ كرسي أو منضدة في المنزل يحتضن عشرات الكتب بعضها في انتظار صاحبها الذي رحل دون وداع أو إنذار...

من الصعب عدم تذكر أصحاب النظارات (قعر الكوباية)، حتى لو غابوا عن البصر سنين.. هكذا كان (جميل).. توقعت أن يتضاءل سمك النضارة بالنسبة للتطور التكنولوجي القائم. كان يكبرنا بأعوامٍ ولذلك توقعت أيضا أن ملامحه لن تتغير كثيرًا بالنسبة لتغير ملامحي، وأنه لن يتعرف عليّ. وذلك ما حدث، ولكن ليس لأنني أصبحت أكثر طولًا رغم أن شعري أقصر أو لأن بشرة وجهي البيضاء تحولت إلى برونزية أو لأن كعب قدماي تشقق لطول وقوفي أمام مجلس الشعب.. بل لأنه غافلني ذات ليلةٍ وتركني لأتوه مع ساقية الدنيا التي لا تكف عن الدوران أبدًا... وبات ضريرًا.

لم أجد عنده المعلومات الكافية التي وددت لو تروي ظمأي.. أي إشارة تؤكد أن مجدي لم يقتل نفسه.. معلومه تدفعني للثأر من الجاني..

كيف لشاب في عمر الصبح أن يأثر الكُفر على الحياة؟...

أيُّ دوافع حاصرته ليسجن وقد كان على وشك التخرج من كلية الحقوق التي انتسب إليها وكافح كي يوازن بين اعتنائه بأخيه وبين الدراسة المنزلية كما قال (جميل)، الذي تعرَّف إلى صوتي وداعبني بذكريات الطفولة، وقبل انهياري ابتسم إليَّ...

ابتسم إليَّ.. و(مجدي) من الصورة يبتسم إليَّ.. وأنا هل أبتسم؟

***

تجولت و(جميل) بين بقايا حقول مزروعة بالبرسيم ومتناثرة على أركانها بضعة شجرات منسية. جميع المارة حدقوا استنكارًا لوجودي وذراعي متأبطة ذراعه..

منصتةً لـ(جميل) يحكي:

"ليست هذه الحياة التي حلمنا بها يا (زينب) وحلمنا خلالها بتغيير المصير، أظن أننا على ما نبدو بالنسبة لكثرين نجحنا في امتحانات البطولة. وغدوت وأخي قدوةً ومثلًا لمن حولنا.. لكن ليست هذه الحياة التي أملنا وكافحنا من أجلها.. رغم أننا لم نأمل رغد العيش، كفانا الستر والسمعة الطيبة.

السلام يا (زينب) هذا ما قصدنا، أنتِ تقولين إنكِ رحلتِ إلى الزحام وتعملين مع المغامرات، وأن لديكِ حياةً مليئةً بالأنشطة. تشتغلين بحقوق الإنسان هذا أكثر ما طلبتِ يا (زينب)، أتذكرين يا صغيرتي - إعلامية تتخبط بين برامج المنوعات - مع الوقت قد تكتسبين سلطات عدة، أمامكِ الحياة فلا تضيعيها.

هل نلتِ من السعادة؟ هل شعرت يومًا أنكِ مكتفية؟ إنكِ راضية للتوقف عند هذا الحد من الحياة؟ فلو أنكِ نلتِ فقد يحظى أخي رحمة الله عليه أيضًا بالطمأنينية، لو أن أحدًا نال قسطًا ولم يدفع ثمنه! ولو أنكِ حظيتِ ومعكِ أسرتك بسلام الطفولة ورعاية الأهل ودفء البيت على خلاف (مجدي) فما كان يلبث أن يكسب قوت اليوم من عمله المسائي بعد خروجه من المدرسة الإعدادية حتى يسلبه إياه عمي لتسديد مصاريف محامي والدي - بحسب ادعائه.

أذكر حين قررنا السفر إلى جدي بإدكو لنشكوه عمي، مشينا كيلومترين من موقف الأتوبيس وحتى مسكنه المبني بالطوب اللبن. لم نجده.. كان يغسل كليتيه إسبوعيًّا بإحدى المستشفيات التي تبعد هي الأخرى كليو مترات عن قريته، استقبلتنا إحدى الجارات وقدمت لنا حساء السمك وعندما عاد كان في حالةٍ مزرية، لم نخبره شيئًا مما جئنا من أجله، لكنه حدثنا عن قسوة الحياة والصبر ودوام الحال المحال وكيف أنني وأخي الرصيد الذي يفخر به قبل وفاته؛ طيَّب خاطرنا ولم يقدِّم مساعدةً.. تركنا لنخوض الحياة دون أن يسألنا حتى المكوث معه...

انتبه (مجدي) إلى المدرسة. ذاكر ما بين الحصص وأثناء الفسحة.. يسأل أساتذته عن إجابات يعرفها فقط لتكرر على مسامعه فيحفظها. عمل بورشة الخردوات لستٍّ سنواتٍ بدايةً بعمر الحادية عشرة، من الساعة الثانية ظهرًا حتى الحادية عشرة صباحًا فقط ليجني خمسة جنيهات يوميًّا....

وهلّ علينا وعيد الدائنين الذين صبروا إلى أن اشتد عودنا وصرنا رجالًا. حيرتنا آنذاك لونت بالخوف والتهديد.. أشار عليّ شيخ الجامع بتحفيظ الأطفال بمقابل مادي بسيط، في البداية بين جنبات مضيفة الجامع ثم منزلنا ثم انضم إليَّ (مجدى) يعلم الحساب واللغة

الإنجليزية للصفوف الابتدائية الأولى. فقط وقت ذلك انتهت علاقته بالخرداوات، نجونا بالسمعة الطيبة.. بحفظي للقرآن.. بصوتي يطل من المآذن...

انتسب (مجدي) لكلية الحقوق بعد تخرجه من الثانوية العامة وتوفي أبي الذي حُكم عليه بالسجن المؤبد في ثلاث قضايا وبعده بسنة لم تتم، لحقت به أمي قبل خروجها بشهور. وها هو أخي بالسجن كما قدِّر لوالدينا، فأي مصير مقدَّر لابن عائلة إجرامية _ كما تقول الصحف_ غير ذلك المكتوب ـ مشوار طويل نحو الصواب بعيدًا عن أبناء عمومتنا لم يُجدِ نفعًا..

أقول أحيانًا: "يا ليتني كنت شقيًا ولكني أعود لأنتظر عوضك يا كريم.. فمتى يأتي؟!"

بكى (جميل) وأبكاني. وجلسنا تحت شجرةٍ على قارعة الطريق وعاد يحكي:

"كسب قوت يوم خمسة جنيهات.. فرح بالخمسة جنيهات وأتى لي، فرحت بالخمسة جنيهات. لكنها لم تكف لندخر فنشتري لكل منا

بنطلونًا وحذاءً.. الشهر سبتمبر يدق الباب والبرد يقرصنا كلما غابت الشمس، وعلى الشمس أن تغيب وعلينا أن نزداد طولًا. ولا يعود ما ألبستنا أمنا يومًا صالحًا. ادَّخرنا لشهر من ثمن العشاء وجاء (ديسمبر) واشترينا (بنطلونًا) واحدًا و(حذاءً) واحدًا. وجلس (مجدي) بالبيت بينما ذهبت إلى المدرسة حتى أتى ميعاد عمله، ارتدى بنطلونه القديم القصير و(بروفل) قصير الأكمام، وفي اليوم الذي تلاه بقيت في البيت بينما ذهب (مجدي) إلى المدرسة، ولأول مرة منذ سنة ببنطلون وحذاء جديدين. تلامز زملاؤه وتهامزوا واستدعاه المدير، وفي مكتبه كان هناك مخبر شرطه بانتظاره.. أتاني يبكي أخذته في حضني طوال الليل وفي اليوم التالي ذهبنا لزيارة أمي وحكيت لها على غير رغبته. بكت وبكى وبكيت.. حثتنا مواصلة الطريق، على الأمل. وقد حدث. ذهب (مجدي) في اليوم التالي إلى المدرسة مرتديًا ملابس عمله القديمة المهترئة أثناء الطابور الصباحي. اعتذر له أحد مدرسيه علنًا أثناء تقديم الإذاعة المدرسية وأمام جميع الطلاب والمدرسين، طيَّب هذا جرحه وصفيت نفسه، كان يغفر بسرعة كالملائكة".

***

لقائي مع جميل استبق زيارتي لسجن دمنهور.. خفت أن يغسلوا من مخي ذاكرتي عن (مجدي) ورجيت أن أعرف على لسان (جميل) حقيقة دخول (مجدي) للسجن.

قبل أن أسأله طلبت رقم تليفون المحامي.. وأجاب (جميل) بأن (مجدي) رفض أن يدافع عنه أحد غيره، ولما أبديت اندهاشي قال: "ألم تعرفي أنه قد تخرج من كلية الحقوق في نفس العام".

أما عن السبب فحكى لي (جميل):

"كان ل(مجدي) زميل دراسة يعمل صحفيًّا بجريدة (أخبار كفر الدوار) الأسبوعية؛ أخبر (مجدي) ذات يوم مشئوم أن رئيس الحي وصله مبلغ مالي يقدر بمليون ونصف لتشغيل وإسكان متحدِّي الإعاقة ممن يتقدمون بأوراقهم، وبلغنا من أحد موظفي الحي أن الرئيس اشترى بالمبلغ وحدات سكنية وعمارتين بمنطقة سيدي شحاتة على طرف كفر الدوار، لم يكتمل العمل فيهما. على أن توزَّع على من يستوفي الشروط. وتحمَّس (مجدي) للأخبار وقدم أوراقي وطمأنه ذات الموظف الطيب.. ومرت الشهور وإذا بنا نتبين أنه قد تم تسليم الوحدات والعمارتين لساكنيها منذ أسابيع.. بكل جنون ذهب (مجدي) لإحدى العمارتين، ووقف أمام شقة وطرق على الباب ليظهر له قاطن الشقة سليم الصحة في الأربعين من عمره ينادي على ابن له.

سأله (مجدي): "أليست البناية مخصصة للمعاقين؟" فتردد الرجل قبل الإجابة.. ثم قال في تلعثم: "لا.. لقد حصلنا عليها من القرعة". وزاد كذبه بأن قال: "قدمت أوراقي للحصول على الشقة منذ خمسة أعوام". فقال مجدي: "وكيف يقبلون رجلًا أربعينيًّا تزوج وأنجب؛ ومشروع القرعة التي تتحدث عنه خصِّص للشباب المتزوجين حديثًا؟.. تقول منذ خمسة أعوام ويبدو أن ابنك في العاشرة من عمره وأراهن أنه أصغر أبنائك!"

فأغلق الرجل الباب في وجه (مجدي) دون رد...

الشارع كان يضج بالسيارات الحديثة مكوَّمة تحت العمارتين عكست شعاع الشمس فصفع عينيه...

_ "وماذا حدث بعد ذلك؟"

_ "ذهب (مجدي) في اليوم التالي للموظف الطيب. وحصل منه على أسماء وعناوين من تقدموا للمشروع.. واتفق معهم وذويهم أن نلتقي أمام مبنى المحافظة بدمنهور*، لنفضح رئيس الحي ونتظاهر لحقوقنا".

_ "متى كان ذلك؟"

_ "صباح يوم الاثنين ٥ يولية ٢٠١٠".

_ "وهل وافق المحافظ على مقابلتكم؟"

_ "لا.. أخبرونا أن المحافظ بالقاهرة فاقترح شابان ضريران الاعتصام حتى يظهر المحافظ. ووافقنا.. تخيلي مجموعة من الأهالي معظمهم طاعنون في السن.. الشاب منهم يحمل إعاقته معه.. منهم المشلول والأصم والأعمى وخريج التربية الفكرية ومن فقد جميع أطرافه.. تخيلي هذة المجموعة المعتصمة منذ أول الصبح تُهاجَم في منتصف الليل من الشرطة بالعصي والهراوات الكهربائية.. حلقنا فوق أشلاء بعضنا البعض.. وحدث ما حدث".

_ "ماذا حدث؟"

_ "ضربني مخبر بعصاه على وجهي وهذا ما أفقد (مجدي) عقله فأخذ يضربه وهو يردد "يابن القحبة" حتى أفقده وعيه.. اقتادوه ولم أعرف إلى أين".

تقصَّيت عنه في الأيام التالية في قسم الشرطة ومديرية الأمن والمحافظة، ووزارة العدل. لم يكن هناك من موظف أو أمين شرطة أو عسكري لم أسأله عن (مجدي). وبالطبع أنا لم أرَ أيًّا من الضباط الذين داهموا الاعتصام، لكنت تعرفت عليهم وسألتهم وشكوتهم حتى أعثر عليه. ولم أتلقَّ مساعدةً تذكَر من أي فرد من معتصمي تلك الليلة الغابرة. حتى أتاني أمين شرطة يُعلِّمني أنه يقضي بسجن دمنهور على

ذمة قضيتين إحداهما تم الحكم فيها بستة أشهر مع الشغل والنفاذ للتعدِّي على موظف حكومي أثناء تأدية عمله، والأخرى لم يتم البت فيها بعد متهم هو فيها بالتحريض على التظاهر.

وعندما وصلت إلى السجن في الصباح التالي لزيارته أطلعوني نبأ موته. ورغب السفلة أن أصدِّق قصة انتحاره. هل تبتغين معرفة ماذا أصدق يا (زينب)؟ أنا أصدق،، بل أوقن أنهم أرغموه على الانتحار. عذبوه وقتلوا فيه الروح وأرغموه على الانتحار.

***

تعصف التساؤلات داخلي. وقد خلفت زيارة (جميل) الالتباس والحيرة. كان لي سؤال عن حكاية ((خميس والبقري)) لماذا لم أسمع أحدا قط يأتي على ذكر ما حدث وقد نشأت في نفس المدينة التي عاشا فيها وحكم فيها عليهما بالإعدام بحجة تحريض عمال مصنع الغزل والنسيج على الإضراب. لماذا لم يزل جدي الذي وافته المنية منذ عشرة أعوام يعشق الحديث عن (عبد الناصر) ومتمماً على صورته بغرفه الصالون القديمة كل يوم؟ رغم أنه عاصر الأحداث.

كانا عاملين بمصنع كفر الدوار، شاركا مع زملائهم في إضراب عن العمل ووقفات احتجاجية سلمية ضد الإدارة المنتمية إلي العهد البائد والتي عاني منها العمال طويلا، وتعالت الهتافات بسقوط المدير والسكرتير العام ورئيس مكتب العمل، مستندين إلي ظنهم بأن الضباط الأحرار، وعلي رأسهم القائد العام محمد نجيب، سوف يرحبون بمشاركتهم في التنبيه إلي واحدة من بؤر فساد ذلك العهد البائد.

كان البكباشي جمال عبد الناصر وزير للداخلية في ذلك الوقت...

وكان موسي صبري الصحفي الشهير حاضراً وكان حاصلاً علي إجازة الحقوق فاعتبروه محامياً وتقدم للدفاع عن المتهمين بكلمتين شكليتين أدانتهم أكثر من أن دافعت عنهم..

وهكذا مضت المحاكمة دون أدلة ولا دفاع ولا محاكمة.

حوكم مصطفى خميس الذي كان يناهز تسعة عشر عاما، ومحمد البقري بعمر الثامنة عشر ومئات آخرون من ضمنهم من لم يتجاوز الحادية عشر أمام محكمة عسكرية وصدر الحكم على خميس والبقري بالاعدام شنقا. هذا فضلاً عن عشرات الأحكام بالأشغال الشاقة المؤبدة والمؤقتة.

ألححت على والدي مرة بالسؤال وكان لا يعرف. سؤلاً يدور بخلدي ربما أجاب عليه أحدا ما قبلي، من عاصر تلك الأيام المثيرة للدهشة. من اكتشف فجأة رغم الاستقرار الاجتماعي الجديد، رغم بعض المكاسب التي لم يتصور قط قبل الثورة أنه قد يتسلمها، رغم كرامته كعربي ومصري التي لازالت تملأ وجدانه، أن صوته يهم وعلى الآخرين أن يستمعوا..

هل كانت تلك البداية لتخلي المصريون عن الديمقراطية التي قادتهم أثناء مقاومتهم للإنجليز واستبداد الخديوي كما فهمت من الكتب المدرسية؟

"لسنا عبيداً وقد خلقتنا أمهاتنا أحرارا"

هل كان قانون الإصلاح الزراعي الجديد الذي أورث جدي الأرض بمثابة رشوة للعمال والفلاحين مقابل السكوت على اغتصاب حق أول رئيس مصري؟

تغييب جماعي أم أن الثورة أصابت بوهجها العيون؟

أم أنهم ملّوا الليبرالية العنيدة التي اختبروها مع الوفد ومالوا لعبادة عبد الناصر ومجلسه العسكري؟

أخبرني والدي أن البقري كان يعول خمسة أبناء وكانت له أم معدمة تبيع الفجل لتشارك ولدها في إعالة أبنائه بملاليمها التي تكسبها من بيعها.. وأخبرني أنهما صرخا عند المحاكمة " لقد هتفنا بحياة القائد العام.. لقد هللنا للحركة المباركة..."

***

-١٠-

وجه بشوش.. كأنه هكذا مأمور السجن.. وجه بشوش للموت.. ورغم رحابة الاستقبال لم تغفلني قسوة الموت الحاضر، تكتنفه كل الجنبات.. كل الساحات. بدايةً من انفراج بوابة السجن، كنت أشعر في كل مرة يُفتَح فيها باب بالسجن من أجلنا أن الموت ينتظر خلفه.

لهذا كنت أنتظر في نهاية الصف يتقدمني زملائي.. هناك باب واحد كان مكتوبًا عليَّ أن أطالب بفتحه.. باب زنزانة (مجدي)....

***

كانت غرفة الإجتماعات المطلية بالأحمر الطوبي أشبه بغرفة لتكتيك حرب دولية، بالطاولة الضخمة المركزية، خرائط متعددة للسجن على أحد الحوائط، ثلاث صور كبيرة متجاورة لرئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزير الداخلية على الحائط المقابل تجاورهما تشكيلة من البنادق المختلفة الأحجام، ومجموعتان كبيرتان من الثريا معلقتان منتصف عرض السقف السامق... لم تكن في أبهتها

دون مستوى غرفة مأمور السجن. وعرفنا أن مقابلة العساكر الذين تولوا حراسة الرواق الذي يضم زنزانة مجدي وزملائه ستتم في هذه الغرفة. فطلب بعض الأجانب من الفوج أن تتم المقابلات في قاعة استقبال الزوار أو قاعة طعام المساجين. المأمور قال بكلمات إنجليزية مهذبة أنه أرجأ زيارة القاعتين للنهاية حتى يتسنى للزوار الأجانب من الفوج الإستراحة بينما يستجوبون العساكر لاقتصاد الوقت. كنت أعرف مسبقا أنه لم يكن بالسجن قاعة للطعام وقاعة استقبال زوار المساجين لم تكن إلا غرفة كبيرة نسبيا يتوسطها سياج حديدي ولا تحتوي على مقاعد للجلوس أو مقسمة بشكل يخدم خصوصية كل سجين مع زائريه كما تصور المبعوثون الأجانب... عنما اصطف العساكر أمامنا كان علينا اختيار أنفسنا لإجراء المحادثة المرجوة مع العسكري الذي يخبره الضابط أن يتقدم الصف بخطوة. ومنذ أن دخلوا وعينا العسكري الامهق مثبتتة علي، لماذا شعرت أنه يريدنني أن أختاره..؟

جلسنا في مقعدين متجاورين على الطاولة. لم يسمح لنا بالتسجيل وربما هذا ما شجعه على الكلام.. كان الأمهق يتلفت بعنقه كثيرا وبالكاد انتبه إلي...

ما اسمك؟

سلامة أحمد صديق عبد التواب. رد بتلقائية وسذاجة.

اسمع سأختصر الطريق ولكني أود أن تخبرني بأي شيء تعرفه ولو ملاحظة صغيرة..

هل تعرف كيف مات مجدي أو يحيى؟

لست متأكد. كلاهما رحل في الليل ونبطشية حراستي بالنهار.. إنما عندي الكثير لأخبرك به والقليل من الوقت فانصتي جيدا... كان مجدي بالكاد يتحدث كما كان بالكاد يأكل. وفرض المأمور ألا يخرج للساحة في الوقت المخصص مع زملائه ولا حتى لصلاة الجمعة. كان سجينا منطويا وكئيبا وبدا أن انفراده في تلك الزنزانة بنهاية الرواق يليق به. لا أعرف لماذا طلب مني أنا بالذات قلما ليكتب به. لكني كنت أعرف شاعرا كئيبا ومنطويا مثله بلدياتي من(كوم حمادة) كان مدرسا للغة العربية لم أكن أفهم من كلام هذا الشاعر شيئا لكن كان يشدني دائما وقع كلامه.. فهمت أن مجدي شاعر.. زودته بقلم من الفحم كل أسبوع ليكتب أشعاره على الجدار.. كنت سأطلب منه أن يقرأها لي. لكن الأيام مضت. ومات. أنا متيقن أنك لن تخبري أحدا، أليس كذلك؟

طبعا، طبعا.

لقد أعطيته موسا ليبري أقلامه.. حدث هذا مرة واحدة.

متى؟

منذ أربعة أشهر أو يزيد.

بالقطع صار صدئا مع مرور كل الشهور تلك. لو كان صدئا لكان بإمكان الطبيب الشرعي معرفة ذلك. سألجأ إليه. أعرف أطباءا يمكنهم أن يتوسطوا..

أوقفني بإشارة من يديه وكان يتلفت بعينيه ووجهه يكاد يجري مسح شامل لارجاء الغرفة. ورقبته تتحرك بعنف إلى أقصى زواياها في اليمين واليسار.

ثم قال بصوت يكاد يكون همسا: وهناك تلك الحادثة.. عندما اتهم كلا من يحيى ومجدي باللواط..

ماذا؟ لم يتحدث الضباط عن ذلك.

لن يتحدث أحد عن ذلك ، إنها التعليمات.. هذا ما جعلني أشك... هل أقسمتي أنك لن تبلغي أحدا بشيء مما قلته؟

أقسم بالله، ولا بكلمة..

سأقص عليك سريعا قبل أن يلاحظ أحد. المهم ألا تأتي على ذكري... عندما زج يحيى بزنزانة نهاية الرواق مع مجدي تغيرت حاله.. وكانا يمضيان معظم الليل في سمر وأحيانا يتعالى صوت ضحكة مجدي حتى يصل للعساكر، وهذا أغضب عساكر نبطشية الليل. فدخل عليهم في احدى الليلي عسكري سُني كان يأمل في اطلاق لحيته ولكن بالطبع هذا مستحيل لأنه يعمل في الداخلية، المهم كان رجلا يعرف ربه ولكنه غبي. دخل ومعه كشاف ضوء ببطارية بغرض توبيخ مجدي لتعكيره صفو تسبيحه. إن ضوء الزنزانة الخافت الذي يأتي من الممر لا يسمح برؤية تدوينات مجدي بسهولة ولكن كشاف الضوء عرّى الكلمات أمامه . وكان مجدي قد قل تدوينه تلك الأيام لكنه كتب جملة(أحب يحيى)، ثار العسكري السُني وضرب كليهما ثم بلغ الضابط النبطشي. فضربهما بحزام البنطلون وأمر بتذنيبهما كل ليلة لساعات. لولا العسكري السُني لما أمر الضابط بتذنيبهما كل ليلة، كانت تلك الفضيحة شيئا عاديا بالنسبة لعساكر السجن تتكرر كثيرا حتى صارت روتينية..

ولكن هنا مفارقتين، أولهما أن مجدي ويحيى لم يضبطا بالجرم المشهود. كلمة على الجدار تظل مجرد كلمة وفي رأيي أن عقابهما كان تعسفيا.. هذا ما أخبرني به شيخ الجامع الذي حدثته عن الأمر.

والأخرى..؟

أنه لم يتم فصلهما في زنزانتين كما جرت العادة.. كان يمكن انتقال احدهما إلى زنزانة أخرى مع بقية السجناء. فهذا الأمر يأتي به السجناء.

حقا هل يحدث؟

يحدث.. ليس كثيرا.. لكنه لم يكن بالأمر الغريب.

هل تعرف لماذا دخل مجدي السجن؟

رد الأمهق: في الحقيقة أنا لا أعرف.

قبل أن يرحل عن طاولتي كان سؤالي الأخير الذي طمعت أن أصل من خلاله على حل أو سيناريو منطقي لموت مجدي؟

لكن الإجابة: غير مسموح لمساجين الزنزانة بنهاية الرواق أن يخرجوا للصلاة فكيف بالله يحصلون على شفرة حلاقة.

***

رغم أنني تنبأت بأن تكون الزنزانة قد طُلِيت بالكامل ـ بلون لعله زاه ـ في محاولةٍ لاستبعاد أي شبهة مسئولية لإدارة السجن. إلا أن ذلك لم يكن ما شهدته. ولم أحاول حينها تفسير ما شاهدت.. كانت

جدران الزنزانة مغرقةٌ في الحروف.. حروف مكتوبة لكلمات وجمل ومقاطع متناثرة.. يتخللها رقعة طلاء أصفر يضج صارخًا بحقيقة أن الطلاء تم بقصد إخفاء بعض المقاطع التي كتبها (مجدي) بالقلم الرصاص..

كان اسمه يتخلل إحدىٰ المقاطع يثبت أنه هنا دوَّن سيرته...

في هدوء متوجِّس أخرجت من حقيبتي الكاميرا.

تلك هي الأحرف والكلمات والجمل والحكايات أنقلها عبر خطاب لا أوقن له مُرسَلًا إليه..

إليكم أنتم من لستم هنا..

"تآكلات الجدران تشكل أمامي رسومات عدة، تروعني أوقاتًا وتضحكني أوقاتًا أخرىٰ، لكنها في الغالب تحدثني عن الموت...

حاولت مرارًا ألا ألمس الحيطان ولا تلمسني.. كلما لامستها أشعر بالإحباط والخوف.. ويزداد إيماني بأن مصيري ينتهي ها هنا مع برودتها ومع خشونتها.. في

النهاية قررت أن أكتب... كي أمحو آثار التآكل وخيوط العنكبوت وأوهامي وفزع الرؤى".

"إذ غفوت أحلم أنني أخترق الجدران السميكة وأعبر إلى حيث تطأ قدمي على الرمال وأرى المياة الزرقاء الواسعة أمشي بمحاذاة الشاطئ دون أن تلامس قدماي مياه الأمواج من تحتي.. ينادي عليَّ منادٍ، ألتفت.. رجل بلباس الصيادين ذو قبعة بيضاء، يقف على حافة البحيرة ممسكًا بطرف حبل سميك ويشد مركبًا صغيرًا.. يشير إليَّ أن آتيه. فأذهب...

طوال الطريق إلى البر الآخر أتأمل حزن عينيه الخضراوين التي تشبه عينا أمي. يرسو المركب على البر الآخر. يمد يده ليساعدني على النزول. أحس بتشققات يديه.. آلفها.. أقول "أشكرك" وأكاد أقول: "يا جدي" لكني أتراجع. يرحل قبل أن أسأله السؤال الذي يهمني على الإطلاق..."

"الأرض من تحتي طينية ولا أرىٰ غير النخيل العالي، ولكني أشم عبير البرتقال، يلامس وجهي الهواء العليل الذي اشتقت إليه منذ الطفولة، أستنشق مرات عدة كأني أستزيد بآخر زادي من الهواء...

أعبر النخيل إلىٰ حيث لا تصل آشعة الشمس.. أربعة أضلاع من النخيل تشغل مساحة مربع كبير من شجيرات البرتقال أتوق إلىٰ التذوق.. أجوع.. أعطش.. ولكنني لا أمد يدي ولا أعرف ما الذي يمنعي.. يطول بي الأمر.. يضيق بي الأمر حتىٰ أكتشف أنني فقدت ذراعي..."

"اليوم ... ولا أستطيع التيقُّن من تاريخ اليوم ولا كم من الوقت مرَّ عليَّ أو عدد الأيام وأنا سجين هذه الجدران... انضم إليَّ شابٌّ بدا وديعًا جدًّا كفرس وليد ليكون شريكي في الزنزانة... اطمأننت إليه وتفائلت خيرًا لفكرة أن يؤنسني رفيق وخصوصًا بعد أن أخبرني العسكري النبطشي أنه ليس سجينًا جنائيًّ... ولذا لم أستغرب خطوط الانكسار التي بانت في ملامحة ولا شحوب وجهه الخمري المصري الأصيل..

بدا لي كأني أراني في مرآة..

بدا مثلي في شحوبه ونحوله... رغم أني استشعرت بصمات أسرة فوق متوسطة فوق جبينه. وددت لو يشاركني الحديث. حاولت اجتذابه للكلام... حكى لي عن تنظيمه بما يسمَّى (أكونت) على شبكة الإنترنت... ودعا إلى اعتصام في يوم السادس من إبرايل العام الماضي، في ذلك اليوم تم القبض عليه وهو يتنقل منذ شهور (كعب داير) من مركز شرطة إلى آخر. أخبرني أيضًا أنه قلقٌ بشأن والدته التي على الأرجح فقدت أثره..."

"(يحيى) إنه الرفيق أشاد بتدويني على الجدران مع ابتسامةٍ حزينةٍ نادرةٍ. أنا الآن ولأول مرة منذ زجي بين هذه الحيطان الأربعة وغلق هذا الباب المصفح في وجهي أشعر بالحياة تدب في روحي رغم أن رفيقي نادرًا ما يتفوه بكلمة.. أنا حي..."

"أخيرًا أغفو حتى نوم عميق منذ ليلتين منذ أن شاركني (يحيى) الوجود، ولكن أيقظني منذ قليل... كلمني بعد طول انتظار يوصيني أن أخبر أيًا كان من يسأل عنه إنه ليس نادمًا لما فعل، وأن هذا هو المخرج الوحيد أمامه من مأزق الأسئلة. ولكي يفهم الجميع أن الحياة أصبحت كالموت... لم أفهم، ولكنه الآن يطلب مني العودة إلى النوم ويحاول طمأنتي فهل أطمئن؟

يبتسم إذ أدون ما يجري الآن، بل يضحك! أعتقد أن معنوياته قد ارتفعت... وها هو يخلد إلى النوم مديرًا ظهره. سأكمل أنا أيضًا ليلتي نائمًا مع ذكرى ابتسامة رفيقي.."

"يدي ملونة بالأحمر.... ملطخة بدمائك يا (يحيى)... كيف تعمدت ألا أفهم كلماتك لي!.... كبف تعمدت ألا ألحظ تلك الشفرة التي أخفيتها عني!.... كيف تعمدت أن أنام دون أن أشعر بروحك تخبو رويدًا إلى جانبي.. وأن تتسلل دماؤك تحتي قبل أن يتشربها الأسمنت.

لِمَ سمحت له أن يرحل دون أن أقول له (أحبك)؟..
وكيف أصمد مع البقاء هنا وأنا أتنفس رائحته؟... لم أعد
أدري لماذا أكتب وربما تكون هذه آخر كلماتي..."

"أمس وعيي اعتاد الاصطدام بقدري

والآن روحي تصطدم بالجدران...

وزني خفيف رغم أني لم أطِر يومًا.. ولم أتمكن ولو للحظة
من التشبث بروحي المتعلقة.. بتلك الجبال الشامخة في ذلك
الزمن البعيد..."

"المستحيل يدور عامًا بعد عامٍ... يطحن أحلامي
الشرعية...

التي لم تجلب لي غير الكسرة...

لو كنت كسيحًا..

لو كنت ضريرًا.. هل كانت روحي لتلامس موطئ
الحسرة؟"

أقرأ....

وكلما قرأت أرى نفسي في كل كلمة كأنما هي مرآة للروح. الروح التي كنت أبحث عنها.. كنت أراها تنطلق من سجن الحروف والكلمات تربض بداخلي كما فعلت في السنوات الأولى من العمر المغترب.. حتى هناك كان يمكن أن أختصر عمري وأتمّمه راضيةً...

"يتدلى من فرع شجرة صفصاف طفلين يرتديان كل منهما مريلة صفراء وبذور بودرة العفاريت وضحكات برية"...

إلى روحي البعيدة
في الطريق من دمنهور إلى أرض الأهل
عبر حقول الأرز والبرسيم

***

(حنا): "بالطبع يا زينب تركوكِ لتصوري الحيطان.. أليس هذا ما يبتغون إليه، إثبات شبهة الانتحار بأي طريقة؟ ولكن الطلاء الأصفر الذي تتحدثين عنه مثير للريبة.. هل تساءلتِ عنه؟

_ "نعم.. لف ودوران انتهيا بإجابةٍ مستفزةٍ؛ شتائم وسباب.. (تم مسح الشتائم والسباب).. هكذا أنهوا المساءلات".

_ "تلك اللغة الشاعرية تتجاوز السباب.. أها.... وماذا عن الثالث؟"

_ "يدعى (محمد) انتحاره تلا (مجدي) بيومين.. كما فعل (مجدي) بعد (يحيى). لكن أحدًا لم يعرف قصته، كان مسجونًا في قضية حيازة مخدرات، التفسير الوحيد الذي حصلت عليه من العساكر يتمحور حول اعتقادهم بأن الزنزانة مسكونة.. متحججين بأصوات الصراخ الصادرة من الزنزانه طول الليل. تقرير الطبيب كان جرعةً زائدةً من المسكنات. من أين أتت تلك الحبوب أو أي نوع من المسكنات؟ أسئلة لاتزال في جعبتَي الطبيب والنيابة".

_ "وماذا عن أهله؟"

_ "أهله رفضوا استلام جثته لأنه كافر ولهذا لم أتكبد عناء البحث عنهم. أرجح أنه كان مدمنًا للمخدرات ولم يتلقَّ العناية الطبية الازمة وعلى أساس هذا الاحتمال فقد عانى أعراض انسحاب السموم من جسدة ومر خلالها بعدَّة انهياراتٍ عصبية. تطورت لما هو أكثر من انهيار عصبي".

(حنا):

"وربما قتلوه. احتمال آخر مرجَّح لأن تلك الزنزانة بسجن دمنهور من الواضِح أنها كانت مخصَّصة للمعتقلين السياسيين. هل كان (محمد) يصرخ جراء تعذيب شديد؟".

_ "قطعًا الزنزانة لم تكن مخصَّصةً لمعتقلين سياسيين، ولكن يجوز أنها كانت مخصَّصةً بشكل غير رسمي لقضايا المدانين في قضايا الاعتداء على أفراد الشرطة.. أو مدانين لهم تاريخ في الاشتباك مع أمن الدولة.

(حنا):

_ "عموما سأتحرى أمر عائلة (يحيى) وأعاود الاتصال بكِ. و.. (زينب).... لا تدعي الحزن يتملككِ.. تماسكي وهوِّني على روحكِ".

_ "حاضر.. سلام".

أغلقت الهاتف وكنت قد اقتربت من منزل العائلة.

***

في منزل العائلة، عائلة وأحضان وقبلات وحمد الله على السلامة ودموع وربما زغرودة.. وكذلك دفء وحب وابتسامات وضحكات متصابية وأطعمة مفضَّلة وكلام ناعم مغموس في أكواب الشوق

ودموع متلألّة أيضًا..كان ذلك في اليوم الأول. أما الثاني فدعوة زفاف داخل خطاب وصلت، تلاها البخت الأسود والعنس المُحتَمَل أبديته. اليتم أمسى تلك الليلة رابضًا على مفرق الطرق والوحدة متربِّصة وكلاب الليل الضالة في انتظاري بنهاية الطريق... وأنا في ذلك اليوم وذاك لم أكن مثلي.. روحي زجت بتلك الزنزانة مازالت تقرأ كلمات مجدي.

كبَّلت فضول أمي وأختي عندما نهضت من كرسي المائدة التي التففنا حولها للإفطار بعد زيارة ساعي البريد بدقائق، وفتحت وأنا جالسة إليها الخطاب وأخرجت الدعوة. توجَّهت إلى غرفة البنات لأقرأ بينما أمي تنادي من على المائدة.

كتب في الدعوة "عقد قران سيادة النقيب/ سليم شوقي فرج الدين، على الفنانة التشكيلية/ ريم الراوي" . ضحكت طويلًا عندما قرأت (الفنانة) وخبأت الدعوة في حقيبة يدي وتحركت نحو الطاولة ملبيةً نداء أمي. واضعةً على وجهي ابتسامةً استمرت لدقائق معدودات.

***

-١١-

(أنط.. أنط.. أنط.. لعلي أصل.. لعلي أطير.. وكانت أسراب الحمام مهتاجة جدًّا.. تذهب بعيدًا ثم تكرر دورتها عائدةً إليَّ حيث تصطدم قدمي بأسمنت السطح محدثةً تلك الهزات الطفيفة التي قد يشعر بها القاطنون من تحتي.. لكن تبًّا لهم.. سأقفز حتى أطير مع الحمائم الصغيرة...

كانت الدنيا الكبيرة قد ضاقت بي.. تتزاحم بها الأصوات الثائرة.. كأنها تعلن عن حربٍ مع باقي الأصوات لتهيمن على العالم.. قضبان القطار فوق وتحت سطح الارض.. أبواق السيارات بموديلاتها القديمة والحديثة.. عربات الإسعاف التي تنقل شفرة الموت.. سيدات وسادة الباعة الجائلين.. مهرجانات ينثرها أصحاب الفيسبات فوق رأس الجميع.. حتى المآذن كانت تدوي بأصواتٍ آدميةٍ دميمةٍ تلك الأيام الأخيرة...

فوق السطوح، رأيت برجَ حمام فوق عمارةٍ قريبةٍ.. أدهشني أني لم ألحظ وجوده من قبل. والتقيت عن قرب سربين من الحمام. حمامات صغيرة وحمامات كبيرة ملونة بتدريجات ألوان الأبيض والبني

والأسود. سربين من الحمام طافا بقربي ولم ألحق بهما. فأخذت في القفز.. كنت أغني:

"لم تغني لي يا حمام؟ لا تغني لي يا حمام.. ليس هناك طريق من أجلي للصعود.. قبل أن أسقط.."

فجأة توقفت عن النط.. وصرت أحس بقفزات قلبي يتصادم داخل عظمات صدري، داخل جدران الجسد المتألم.. الأنفاس تهجر صدري بلا عودة.. كنت أنظر إلى ذلك الجسد لبرهةٍ وهو يجري مسرعًا فوق السطوح باتجاهي فحملني معه.. وفردت الذراعين بينما أهوي.. وأغمضت عينيَّ في نشوة ملامسة الهواء. نشوة هلاك كل شيء..)

قمت بلا فزع وكنت بجوار أختي التي مدت يدها على كتفي تنام في هدوء مريح.

وناداني (أحمد) فقمت وخرجت إلى الشرفة وهاتفته.

- "السلام عليك يا (أحمد)".

- "كيف حالك الآن؟ أمس بداخلك نضح اهتمام ورهافة عطف كما لم أتصور في بشر، كم كنتِ جميلة وأنتِ تبكين".

- "كنت أبكي قباحة نفسي وجمال نفس الشهيد.. الليلة أنا خدرة".

- "ألا تبالغين؟!"

- "كلا.. لو أنك قرأت الكلمات التي كتبها (مجدي) خلال تمضيته في السجن آخر أيامه، لفهمت".

- "أتسلكين ذلك الطريق؟"

- "أي طريق؟"

- "طريق الاستسلام الذي اتخذتيه من قبل عندما تجنبت العمل في البرنامج".

- "الاستقلال التام أم الموت الزؤام!.. اطمئن يا (أحمد) ليس هناك طريق آخر. لكنها تلك الديناصورات برأسي تأكل الأخضر واليابس".

- "الكوابيس؟ تناولي مهدِّئًا".

_ "ربما عندما أعود إلى شقتي غدًا. هناك الوصفة الطبية لم أصرفها بعد".

- "الكوابيس برهان حنانكِ ورهافة حسكِ. فلا تطغي على روحكِ الرقيقة وتوكلي على الخالق ودعي له أمر (مجدي) ينتقم له. لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. واسمحي لي أن أطلب ألا تستعجلي الرحيل يا (زينب)".

- "لماذا؟"

- "لأنني أحبكِ.."

تلعثمت وأنا أود سؤاله: أحق حديثه أم هرج!.. بكف كاتمة صرخة. ثم أغلقت الهاتف.

كانت دقات القلب المتلاحقة تتلهف للرقص.. دمعة العين المسدلة تغني.. اجتاحت الشرفة المظلمة دفقات الموسيقى الصارخة تجمدت الأنفاس في صدري..

حتى رن جرس الموبايل.. كان (أحمد).. كتمت صوت الرنة التي شقلبت الحال، باغتتني.. عصفت بداخلي خوفًا مقيتًا في غمرة الهوى وقلت "اللهم اجعله خير".

كانت أغنية مشهورة...

(يبكي ويضحك

لا حزنًا ولا فرحًا

كعاشق خط سطرًا

في الهوىٰ ومحاه)

وجعلت أراجع في لحظات ما مر في سنين، كيف سُلب العمر في غرام (أحمد)....

انحسرت موجات الفرحة وظل ضوء الشرفة مقفرًا بسبب كلمات.. وسألت نفسي؛ لماذا تغتالني كلمة وتحييني كلمة؟ أم أنها ليست الكلمة؟ وقلت بصوتٍ عالٍ "لا.. إنها مجرد قصيدة لا تعبر عني منذ الآن.. ربما كانت ولكن ليس بعد الآن".

وعاودت الاتصال ب(أحمد) وتعذرت بسوء الشبكة.

بينما أكلمه كنت أرىٰ مشهدًا سينمائيًّا عشته بالفعل في سن السادسة عشرة..

كنت أمشي بشارعنا بجانبي صديقتي وكنت قد وصفته لها، وخطف بصري كعادته بمجرد أن بان طيفه الوضاء من بعيد. وسار أمامي يقترب رويدًا وأنا أباطئ خطوتي.. وراحت عن بالي الصديقة حتىٰ تقاطعت الطرق وصار خلفي حينها قالت.. "أهذا (أحمد)؟"

أومأت بنعم.. فقالت: "أنتِ عنده كالهواء"

فسألت (أحمد): "منذ متى؟"

فقال: "لا أدرك بالتحديد، علها البارحة عندما جلستِ جانبي في القطار وكتفكِ إلى كتفي أحسست بمشاعر غريبة لم أتمكن من تفسيرها حتى خرجت مني الكلمة قهرًا وذلة وصدقًا. ولكني لا أنكر إعجابي بكِ منذ رحلتنا في مركب (النايل كروز) وخصوصًا عندما خلوت بك.. خلبتينني.. واشتعلت في رأسي خيالات تقبيلكِ ولكنكِ رفضتِ وطلبتِ الرحيل وأثبت أنكِ تحفظين تربيةً رفيعةً متأصلةً حتى في اغترابكِ وبعدكِ عن أولياء أمركِ. أحسبكِ زوجةً صالحةً فهل تقبلين أن أتقدم لخطبتك غدًا قبل رحيلكِ؟. كم أنا متلهف عليكِ!"

سكت وجعلت أفكر هل أخرج ما في حلقي لكنه انطلق....

_ "وددت لو قبلتني دون كلام أو أسئلة وتمنيت لو أنك اقتحمت حزني واستلبتني من اليأس بين وسع ذراعيك. ولكنك هدرت بلؤم أحمق فتوجست. ولم أكن لأقول قبِّلني قبل أن تقول أنت إنك تحبني".

لكني أعطيتك القلادة؟

ابتسمت وابتسم قلبي وأنا أقول "صحيح."

- ولكن لماذا أحضرت لي معك قلادة يا أحمد؟ ومع ذلك لم تتصل بي بعد تلك الليلة.

سألته وكانت في نفسي اجابة حبيبة (أليس لأنك كنت تحبني. ربما أحببتني بالفعل، ولكنك لم تكتشف ذلك قبل تصادفنا في القطار).
قلت: قل الصدق يا أحمد.

ومضى يحكي

كانت القلادة في جيب محفظتي من أياما بعيدة، تتنقل معها من جيب بنطلون إلى آخر.. ذكرتيني بالقرية التي كنا نسكن في طرفها بكفر الدوار. وذكرت جنينة الجوافة التي لعبنا فيها. شعرت أنني كنت تائه حتى وجدتك. معك، في نظرتك، كنت الملك في الحكاية. كانت عيناكي تقول " كُلني". أردت أن أمضغك، وأن أمتصك. كرهت زرقة البحر وأمواجه الطائشة. وأحببت مويجات النيل التي كانت تحت وجهك مستسلمة، تتراقص.

أسمع رد أحمد.. قلبي يطمئن.

لكنه..

طلب مني أن أسمع. قال لي أن طريقي بلا مرفأ. وأنه يبحث عن عمل ثابت بكفر الدوار. وأن شقة ببيت عائلته في انتظاره لكي يستقر. وأنه آن لنا أن نستقر. نترك وظائف القاهرة المعلقة في الهواء.

_ وها أنت جربت شغل الصحفيين، فماذا كسبت؟

_ سأرد عليك.. على الأقل بعد أن أسلم تقريري عن قضية مجدي.

لماذا كنت مترددة في الرد عليه؟ في قنوط تركت الهاتف من يدي بعد السلام. وأخذت أبكي القلب الذي أحب صورةً فوتوغرافيةً وصاغ لها الروح وأبدع واتخذ من السِّيَر والأشعار المؤلفة برهان برغم الحقيقة جلية بمرأى مني. حية في تكهناتي والدعابات. كنت تعرفين أن أحمد يعاني من ازدواجية تربيتنا الشرقية وولهنا بالحرية والانطلاق. فما الجديد؟ هو لم يخذلك حقا كما تشعرين. كل كلامه عن الأصول بحوارتكما المعدودة . ألم تشكي أنه يختبرك عندما حدثك عن القبلات في الأماكن العامة؟ عندما يحدثك عن تعسف الشرق وأحلامه التي تليق بالغرب كان يشعرك أنه يتحدث من منطلق أنك تافهة أو رخيصة. كم مرة تجاوزت معه هذا الشعور؟.

لم تصدق قصائد الشهريار.. ولن تصدق أوهام عشقكِ السخيف..

حكمة قديمة دارت عليَّ...

لكنه الآن يريدني كما أردت.. فلماذا ترددت؟

أمازال حلم المذيعة التليفيزيونية يراودك؟

***

-١٢-

في شقة صغيرة مكونة من غرفة ومطبخ مفتوح على صالة المعيشة أعيش منذ أكثر من عامين.. أثاث بسيط لم أختره مجهّز بتليفزيون كبير الشاشة وثلاجة صغيرة السعة وبوتجاز كهربائي بشعلتين ولا توجد غسالة. أغسل ملابسي يدويًّا في إناء واسع. أحيانًا أنسى شكل غرفة النوم. تقريبًا أنا أعيش في الصالة؛ حيث أنام وأشاهدة التلفاز وأتناول الطعام وأرقص وأقفز وأقرأ وأتأمل وأكتب وأتصفح الإنترنت وأحلق شعر ساقي جالسة أو مستلقية على الأريكة البنفسجية مركز الصالة والكون، أمامها طاولة قصيرة ممتدة بنصف طول الأريكة وخلفها شباك زجاجي بستارة زرقاء ممتد بضعف طولها. وفوق كل قطعة أثاث ركنية تجد كومةً من الملابس الشتوية والصيفية في تجمع واحد ممتزج. لا أسمح أبدًا بسقوط ملابسي على الأرض، ولايتراكم في شقتي التراب لأكثر من أسبوع، ولا أنسى الطعام الفاسد على الطاولة بحد أقصى يومين، تلك كانت حدودي.

وهذا لا يعجب (ريم) التي تتشبث بالنظام والسيميترية في منزلها وسيارتها وحقيبتها الجامبو. كانت تحمل عني هم التنظيم والترتيب والتنظيف لما كنا نتشارك غرفة بيت المغتربات. كنت مسئولةً عن نظافة

وهندام بدني وما أرتديه، أما هي فتصنف أوراقي وكتبي وأحيانًا مواعيدي.

لذا عندما هاتفتني لتخبرني أنها ستأتيني اليوم أضطررت أن أبدأ في ترتيب الشقة رغم إرهاق أعانيه منذ ساعتين لما وصلت من (كفر الدوار) لعلها تبيت معي الليلة.

أليست رسامة؟ لم أسمع عن فنان قط اهتم برتابة التنظيم والترتيب كما تهتم ريم. أتذكر كيف كانت ترتب ألوانها كل نوع في صندوق خشبي مميز. أتذكر بالذات صندوق الألوان المائية التي زخرفته بالأصداف التي جمعناها معا من شاطئ بير مسعود بالاسكندرية. في تلك الليلة باتت معي في كفر الدوار. قابلتها والدتي ببرود وتحفظ واتهمتها بالجرم الشنيع. " هذه هي إذن التي تثنيك عن الحجاب؟" .

آه يا أمي. في الصباح اتسع صدرها لكلينا وانسلتنا من بين ذراعيها رغما عنها.

رتبت شقتي التي آلت بطريقة أثارت في نفسي اللاشمئزاز والنفور إلى جناح في فندق. أتحسر على فوضى تنضح بالحياة. وأقف في

منتصف البهو الصغير لأتمم على كل شيء.. وكأن بمقربة مني أطياف تتوارى خلف المقاعد والأريكة والأبجورة والستار.. أسمع حفيفها في ظلمة غرفة النوم والمطبخ والأركان.. ألتفت. أدور حول نفسي ثم أدور.. لأرقب ما أمام عيني وخلف رأسي. ألاحق شبحًا بغيضًا خجولًا يدمن لعبة الغميضة، تنحسر الأضواء رويدًا، كل ما أراه يتقمَّص لون الأسمنت، كل ما ألمس يتقمَّص خشونة الأسمنت.

أصابتكِ هيستريا فزع يا (زينب).....

ما ترين ليس حقيقيًّا.. أنتِ مريضة حقًّا....

أجثو على ركبتي التي سُلب مني حسي بها، أتفقدها بعيني لأطمئن. ينقشع خيط الضوء الأخير.

كنت ساجيةً على البلاط عندما سمعت رنين جرس الباب.. نهضت ببطء فلم يزل رأسي يدور وتعثرت في صوتي يقول: "أنتِ مريضة تحيين منفردةً في زنزانة".. تنفست بعمق ثم تابعت طريقي نحو الباب.. وضربتني موجة من التوجُّس بينما شببت على أصابع قدميَّ المهزولة لأرى من العين السحرية فلم أشهد شيئًا غير البياض. فضربتني موجةٌ أخرى من الرعب وأنا أسأل: "من؟" حتى سمعت صوتًا أعهده. كانت (ريم) تحمل فستان زفافها محاطًا بغلاف بلاستيكي شفاف...

"أرجوحة تساوي العمر،

حتى يهدهدني.. فيهتز كياني،

في عيني الوجود يتغير،

من كل زاوية .. برهة لا تدوم.

أرى البحر..

الشاطئ والأفق.

أرى السماء..

القمر والغيوم.

أرى النخل..

الجزع والبلح.."

تزورني تلك الكلمات من قصيدة أحمد، والليل في بدايته... أحاول الاستسلام إلى النوم، يدغدغني الارهاق، لكنها تسبح في محيط غرفتي.. أراها على الجدران.. في المرآة وعلى الوسادة.

"أرجوحة في زنزانتي القديمة..

وأنا أرى..

ولا تتعلق بقدمي حبات الرمال،

ولا تماس بشرتي الرياح المسافرة،

ولا أتذوق التمر الرطب..

كأسا زجاجيا مقلوبا فوقي، تدعونه عمري..."

..أدّعي أمام عقلي وروحي أنني قد أتجاهل السفر والسهر والحسرة وأغفو ببساطة كأي شخص آخر.. أدثر نفسي جيدا وأعانق وسادة...

(طبطبة على كتفي فأنهض..

يجلس على طرف سريري مجدي كما لم أره ، يبتسم. تنفرج حنايا الصدر .. تنطلق الفراشات والعصافير داخل براح الغرفة. ترقص على نغم ابتسامته العذبة...

ضغط على يدي، وسألني مالك؟

_ فشلت.. في كل شيء. كل الأحلام غابت عني. حلم الحب، حلم النجاح، حلم الصواب.. خسرت كل شيء راهنت عليه.

_ لقد رميتِ بذورك. فإما كانت بذورا فاسدة أو كانت الأرض بائرة... بالنسبة لي كانت الأرض بائرة على الدوام. أتذكرين مدرس الألعاب، وما فعل؟

_ لماذا فعل ذلك؟

_ لأنني تعاركت مع أحمد.

_لا أتذكر أن ذلك حدث أمامي. لكنني أتذكر أنه وضعك أمام السبورة وسألنا جميعا أتحبون هذا الشقي؟ فهتفنا...

_لا. وجرحني أنك قلت يا صديقتي "لا".. لم يكن أحد يصدق أنني أعاني.. صدق هو أن أحمد يعاني لأن أباه كاد يرميه في النهر، أما أنا وقد رماني أبي.. سأريك الجرح الذي تسببت به يا صديقتي.

خلع قميصه الأسود وقال: ها هو.. مشيرا إلى جرحه غائرا في صدره...)

قمت مفزوعة..

أشعر أنني أختنق.. النفس لا يغادر حلقي...

***

(تتساقط المياه... تنهمر.. تحاوطني القطرات الكثيفة، تشدني إلى أسفل.. تطاردني.. تجتاحني ويدركني البرد.. تغزوني الأشباح.. تلبس جسدي.. المهيمن الآن لست أنا.

جئتك أيها النهر كي أغتسل، آملةً انعتاق آلامي إلى مياهك المقدسة التي خلقنا منها.. جئتك أيها النهر هذه المرة ساعيةً لأرض جديد.. جئتك أيها النهر وبمجرد أن أنزلت قدمي إليك غمرتني حتى الغرق.. وطافت حولي عرائسك العجائز يتهللن، هكذا رأيتهن. أصابتني حمى النهر، معهن رقصت فدرن حولي وهم يتمتمون بكلمات تخيل إلى سمعي كبرطمة أمي في ساعات كآبتها. فأخذت أضرب بقدمي في مياهك وتناثرت القطرات الحمراء من حولي فأخرجت قدمي لأرها مخضبة بالدم.

وكنت أسمع كلماتي ل(ريم) ولم أزل أسمع كلماتها إليَّ..)

أفقت.. وجدتني مكومةً في حوض الاستحمام الصغير.. يضم صدري ركبتاي، تذكرت ما قالته أمي عن البكاء في الحمام، عفاريت تسكن الجسد وشياطين ترقص وتغوي، غسلت دمعي الذي ما لبث إلا ليفيض من جديد. مياه الدش أغرقت الشقة بأكملها، مشيت على الماء كالأولياء الصالحين حتى وصلت إلى السرير الراسي على ضفة النهر.. على الوسادة وضعت رأسي.

(يضغط بعزم جسده الممتلئ على آخر لذة في جسدي.. يغرز أشواك لحيته في وجنتي التي أوشكت على الخدر، يقضم من نهدي ثم ينتحب على كتفي المشلول. بلا تعاطف أصغي إلى العويل المتعالي الذي أصابني بالصداع، لهثاته تهدأ فأهدأ. يدير ظهره إلى البالة التي همدت بجانبه.. أنسحب في ظلمة يبدو أني اعتدتها منذ أمدٍ بعيد، في يدي مفتاح. أخرج من الدولاب صندوق من خشب قديم. أتسلل إلى الصالة على أصابع قدمي.. أخرج قلادة فضية من الصندوق؛ ما زال نضرًا.. أفتح الشباك وأرتدي القلادة.. الهواء يلامس رقبتي.. أتنفس...)

***

تناولت حبة أخرى من المنوم وألقيت بنفسي هذة المرة على الأريكة، كنت أسمع الموسيقى المعزوفة على الناي والعود.. صوفية شرقية.. حزينة ممتنة.. تجبر مستمعها إلى الصمت والإنصات. والهيام معها حتى التلاشي. ليتني أصوم عن الكلام أسبوعًا أو شهرًا. ليتني

أصوم عن أصدقائي والأهل ومعاشرة الخلق.. تلك الدمعة المبتورة التي يبتغون سلبها مني هي دمعة تخصني وحدي..

مفردة..
كفرقة بلا وداع،
وعناق الجلد للهواء، واختناق الأسئلة.
دمعة تهوي على الخد،
وقبلة بلا مزاح تنوء حتى العنق البعيد،
لتتقيح شجرة منتصبة في حضرة الآلهة.
وقبل أن تولد على النهد الطاعن،
تأرجحت تلك الأماني القديمة في خفة الأوراق الذابلة.
خلف ذلك السور، للأبد مقيمًا، لأبد أمنية رانحة.
هاذية تلك الروح الهائمة في الفراغ..
تلحن كلماتها بالحزن وظلام كابوس؛
كهدهد كلما اقتربت يخجل،
فتصرخ ويحسبها صامتة.

استعياب حنيني لكل ما يمضي ويلوح في الأفق مبتعدًا خلف خطوط الأزمنة الممكنة كان عسيرًا مرهقًا.. الماضي خط الدفاع الوحيد

قبل أن ينهار جهازي النفسي. إذا انهار قد أقرر التخلص من الواقع عبر التنازل عن الحياة.

الانعتاق أخيرًا من الوحدة التي تغزو أروقتي حتى مع اشتراكي بتنظيماتٍ اجتماعيةٍ وخيرية تعاظمت صعوبته بمرور الزمن.

أستطيع الآن أن أرى الحل فيمن ينام إلى جانبي على الفراش يدفئ ليالي الشتاء ويملأ ليالي الصيف بالسمر. سأغمض عينيَّ بينما أستمع إلى أنفاسه.. هل أشعر أن وحدتي أبدية لأني لم أتشارك الفراش مع أحد قط؛ ولا حتى مع إحدى أخواتي لما كنا صغارًا؟

هل أعاود الاتصال بأحمد..؟ ام أن الأوان قد فات؟

عندما وجدت (أحمد) لم أصادف حب مراهقة وحسب، بل وجدت نفسي القروية المزدوجة التي أبقت على نصف جلدها لم تنسل منه، يخفي تحته الحنين رخوًا ممزوجًا بالألم، وتركت النصف الآخر يحترق وتخشب ما تعرى من ضعف الأنوثة وطغيانها.. هل تسرعت في حكمي عليه؟ هل تعطيني الحياة درسًا عن الالتزام بالدروب التي تخطها الأمهات بفرع مكسور من شجرة نبتت في أرض خصبة؟.. كنت أبصر أوراقها التي تشبه الصبار الصامد في الصحراء القاهرة..

وأتساءل عن الغدر الذي تجابهه الأوراق لتبرز أشواكها وتسجن الحياة في غلظة جلدها.. أنا الآن على الضفة الأخرى لم أبتعد كثيرًا، أجابه غدري...

إذا مت، ألا ينتهي الحزن داخلي! روحي مخلوقة من ألم وبداخل صدري صحراء سحيقة ودمي فاسد بأحلامي عن الحياة المثالية والسعادة المثالية.. إذا مت هل ينتهي كل شيء كما يقول (حنا) أم ستهيم روحي المكلومة على وجه الأرض كما كان يقول. سنتان مضتا في التصوف من حب الله إلى الكفر. وإذا أبقيت على روحي؛ أستبقى معذبة إلى الأبد لأنني كافرة؟

الحياة لم تعد تطاق والشفرات التي تطاردني أحد من ذي قبل.. أتخيل أني أقتل نفسي بجرح شرايين يدي.. دمي يسيل على سجادتي الزرقاء.. لو أجرح كفي الآن سيلهيني الألم.

***

-١٣-

(أحمل أوراقي.. أحاول التحدث معه.. يعطيني ظهره ويتحدث إلى الأخرى..)

لا أصحو..

* * *

(أحمل أوراقي. أنا في الطريق. الشمس حامية بنور يملأ الكون. أصادفه أمام باب القاعة. في انتظار ندوة سوف تبدأ خلال دقائق. أناوله ورقةً. يقرأ بضعة سطور. يرى أنها قصة جيدة، إنها رسائلي إليك يا (أحمد).. اقترح أن نتوجَّه إلى المكتبة المجاورة كي يتمكن من القراءة بتركيز. أمشي معه.. بجانبه؛ تتملكني السعادة. المكتبة مغلقة كالعادة. أتحسَّس بابها في ألم.

في غبطةٍ اتخذت معه طريقًا مغايرًا حيث جئت. انقشعت جذوة الشمس تحت الشجر؛ النورس يبتعد عن الشاطئ قليلًا، يتشقلب في الهواء ويفرد جناحين ليحتضننا ضوء القمر.. سواد العينين يجتاح الوجود. قبلات مشوبة بمقطوعةٍ حانيةٍ من سيمفونيةٍ قديمةٍ. في

طغمة الوهن يتوقف: "ألا ترين كم يدي صغيرة".. أنظر إلى قسمات الوجه المقفرة. أطلق سراح ذراعه. أمشي...

قانطة تلك الروح المعتوقة.)

***

(أتصل بحنًا على الهاتف. أحكي له عن أطياف الروح المغتالة وغزو الأخيلة. أحسبه سيطمئنني بكلمات. ينقطع الخط.

***

(في غرفة بيضاء واسعة.. مستلقية على سرير.. وعلى يميني لمحت (ريم) وقد استلقت مستسلمة على آخر.. أتفرج على ممرضة شمطاء وهي تغرس في يدي إبرة موصولة بأنبوب مطاطي طويل عن طريق قطعة بلاستيكية خضراء على شكل فراشة.. مذهولة إذ تنظر في عيني.. ولم أسمعها تنادي "يا دكتور" ولكني قرأت حركة شفتيها.. وأتى الطبيب، رمقني أيضًا في اندهاش اضطربت له نفسي لكنه لم يطل الوقوف أمامي ووثب إلى يساري حيث رأيت (مجدي) خلف الباب الزجاجي يحاول اقتحام الغرفة ولكنهم يمنعونه.. أطباء وممرضات

يدفعون الباب كي لا يمر. تمكنوا من إغلاق الباب وانحسرت الجلبة وعاد كلٌّ إلى مكانه. وظل (مجدي) باسطًا ذراعيه على الباب يضرب بجبينه الزجاج من آن لآخر. ووصل والدي من باب آخر، وصاغ والدي كلمات لم أسمع منها غير أني حامل.. وبدا وكأنه يتعاطف معي عندما ربت على رأسي فبكيت.. فأخذ يمسح بكفه اليمنى رأسي وذراعي وصدري وهو يتمتم بالمعوذتين..

وسألني عدة مرات عن الأب، من هو؟ ما وظيفته؟ واستشاط غضبًا لما أبيت الرد فدفع الكومدينو بمحاذاتي وسمعت أصداء تحطم كؤوس زجاجية.. ونهضت صديقتي وأتتني تعرج، تسألني عن الأب فقلت لها:

_ "أبتغي تربيته بمفردي.. لا حاجة له بأب"...)

***

(في دار جدي القديمة.. أمام الأرائك الخشبية ذات الوسائد المتحجرة والشراشف الزاهية.. وقفت وبقربي (ريم) تحوطنا تلك الحيطان المصفرة المرقعة بفضل رطوبة وزمن تمكنا من إسقاط الدهان الجيري الذي كان يومًا ما أبيض. في ركن لم تزل الأحجار على نرجيلة

جدي ملتهبة بحمرتها. أنظر إلى (ريم).. كنت أرغب في ضمها لولا ذلك الرداء الأبيض الضخم الذي تحمله..

قالت: "عقبالك".

"متشكرة.. كم أنا سعيدة من أجلكِ. ضعي الفستان ودعيني أحضر لكِ عصير البرتقال".

"لا.. شكرًا، أخاف أن يتسخ".

"لن يتسخ إذا وضعتيه جانبًا".

"أين؟"

"في أي مكان"..

"لا شكرًا".

نظرت في عينيها. بدت متأهبة ومتوجسة.. وتحلَّت قسمات وجهها بسرور متحفز.

قلت:

"الآن وقد اطمأننت على سعادتكِ. أريد أن أخبركِ أمرًا، أخفيته طويلًا.... لقد قابلت (عصام)".

رفعت حاجبيها وكان واضحًا أنها تجز على أسنانها رغم شفتيها التي أبقت عليهما مطبقتان لبرهةٍ غير وجيزة، ثم سألت:

"متى؟"

"بعد شهور من تخرجنا.. قبل استلام وظيفتي بالبرنامج".

توجهت نحو أريكة وجلست ناصبةً ظهرها ثم التفتت نحوي رافعةً ذقنها مسلِّطةً نظراتها في عيني ولم ينقص من ملامحها وهج التلهف.. ثم قالت:

"وهل حكى لكِ عن شرم الشيخ؟ وأضافت ابتسامة"

"منذ متى تعرفين؟"

"طوال الوقت. سألت خالي الذي يعمل بقنصلية إيطاليا.. فعرفت أنه لم يطأ على أرضها. ثم سألت معارفي في أمن الدولة، أخبروني عن مكانه، تعقبوه وأمروا صاحب المطعم الذي اشتغل به بطرده.. عاد إلى القاهرة بعد شهر ونصف، أليس كذلك؟"

"ولماذا لم تخبريني؟"

"لم أكترث".

غضبت من ردها. وصحت فيها..

"ولكني طوال تلك السنوات.. كنت أكترث لأجلكِ وأشفق عليكِ".

"تشفقين عليَّ! أم أنكِ كنتِ مشغولةً به؟"

"ولماذا أنشغل بأمره؟!"

"لأنه كان يعجبكِ.. ولأجل كل تلك الأحاديث الجانبية والأوقات المسروقة من حفلات سمر الكشافة".

"كيف أستوعب ما تقولين؟"

وأخذت أتحرك بعصبية حتى انتهيت إليها.. قبضت على ذراعها.. كيف؟ كيف؟ كيف؟

ظلت (ريم) جالسةً مكانها لا تنطق.. لا تعتذر.. لاتكترث. تتحسَّس الرداء الأبيض وتصوب سهام نظراتها تجاه عيني.

أهرول مابين الحيطان الأربعة أبحث عن باب للخروج.. لكنني لا أنجح ولا أصدق....

هل عُميت؟. كانت هنا أبواب الغرف وباب للشارع!.. أين؟....

أخربش الحيطان لعلي أجد المخرج مخفي تحت الطلاء.. ولا مفر.

أضغط على ألم كفي الذي لا يطاق وأشاهد (ريم) التي لم تزل تتحسَّس لآلئ فستانها.. ثم ينقطع الضوء.. تسطع اللآلئ البيضاء.. وأشهق أنفاس الدجى...)

***

(رائحة مطهرات المستشفيات ملأت أنفي.. وأرغمتني لأفتح عيني وإذا بالظلمة تنجلي.. وإذا بي مستلقية على سرير في غرفةٍ واسعةٍ تتصدر جدرانها الثلاثة المقابلة لبصري أجهزة غريبة متراصة في عناية.. ورأيت نافذةً زجاجيةً واسعةً محكمة الإغلاق مسدلة أمامه ستارة مفتوحة من الشرائط الأفقية البلاستيكية سمحت بتسرب ضوء الصباح البارد.. أم أن الغرفة مكيفة إليكترونيًّا؟ لأنني أحسست بسقيع يجمد كفي وذراعي، لم يلهيني عنه غير ذلك الألم الطاغي بحلقي وحتى معدتي، تبعه شعوري بغثيان. وودت لو أتقيأ. وشعرت أن ثمة عقدًا من الأحجار بمعدتي تستقر في المريء وحتى

حلقي، تسد مجرى التنفس في صدري. لم أستطع التنفس أو السعال أو التقيؤ. ظننت أنني أحتضر..

تملك الجزع من أوصالي. كوة محفورة لم أشاهد مثيلها قبل ذلك أراها خلف زجاج النافذة.. إنها قبري. أبحث عن ملك الموت في الغرفة البيضاء لا أجد إنسيًّا ولا جنيًّا. تنبهت لصوت مواء خلفي، أدرت رأسي واجئة الوجع حتى استنفدت قوتي، عنفني قلبي الذي كاد يحطم ضلوعي جراء طفره. ورأيت سريرًا آخر تستلقي عليه إمرأة ذات شعر رمادي طويل يحيط رأسها كهالة بخصلاته المتحررة الشعثاء. وعند قدميها انحنى ظهر رجل مرتديًا بالطو الأطباء الأبيض.. يصدر عن جهاز يحاذيني صوت منبه إليكتروني التفت له الرجل مفزوعًا.. يصيح متوجهًا نحوي.. يضع كمامة بلاستيكية على أنفي..

ورأيت وراء سرير المرأة الباب الذي كنت أبحث عنه، فسررت. كان يتوسطه شباك زجاجي أطل من ورائه (حنا) الذي استولت على ملامحه جذوة الخوف.. غالبتني الظلمة مجددًا.)

***

(شققت طريقي بين المقاعد ثم تسلقت درجات السلم الثلاث الضخمة واعتليت خشبة المسرح.. وهلة وجل تلاها وهلة جلال وأنا أتأمل تلك الوجوه المشدوهة تجاهي.. وقر بسريرتي اسم الله، كتبته على صدري ليلة أمس عندما خلدت إلى النوم ليؤازرني، لا أملك غير ذلك الاسم في حقيبة ظهري، فأمي في المنزل تغسل حفاضات أختي الصغيرة التي صنعتها من بقايا ملابس والدي الداخلية القديمة. ووالدي لعله ينتقل الآن من العمل ذي الدوام الصباحي إلى العمل ذي الدوام المسائي ليؤمِّن لنا أرغفة العيش الفينو صباح الغد. ومعلمتي بين الجمع تصحح الكراريس بعلامتين ونجمة، وقلم حبره أحمر.

تأملت الجمع المتلهف لسماعي فتلبس قامتي القصيرة التجلي وألقيت كلماتي بتؤدة وثقة وعلا صوتي فوق الجباه وتجلجل في القاعة. أنقل بصري من شخصٍ إلى آخر كأنني أكلمه بالذات؛ فقد كانت صفوف المقاعد ترتفع درجةً بعد درجةٍ حتى الصفوف الخلفية، وهذا ما يعطيني حريةً لكشف تصرفات الجالس أمامي ورد فعله تجاهي.. ثمة من يأسره إلقائي وثمة من ينصت في وجم، ثمة من يتململ وثمة من لا يكترث.. أعد كلَّ صنف وأحسب مدى نجاحي.

خشبة المسرح هي المركز الذي يمكنني من مشاهدة سلسلتي النوافذ الضخمة الشاهقة الارتفاع على الجانبين. وهما تتخايلان بالضوء المنطلق وفخم الضخامة. أتحسَّس مريلتي الصفراء لأطمئن على هندامي وألقي قولي..

تطير روحي بين جنبات القاعة.. تتراقص مع أطياف ضوء الشتاء البارد الدفيء. ويدخل عصفور صغير أسود بري من إحدى النوافذ ويشاركني اللعب.. يغمرنا الضوء.. ونتسابق بين مروج الأصيل.. ونسبح في أصداء صوتي المتردد في أرجاء الكون.

تباغتني اليد بين فخذي، تعبث بملبسي الداخلي..

تزوغ بين شفتي كلمةٌ تلو أخرى حتى نضبت كلماتي.

أضرب بيدي بين رجلي وأنا أصرخ.. ثم أضرب بقدمي على الأرض..

أنظر إلى حافة مريلتي فإذا بها ملطخة بالدماء.. أتوجَّه إلى الجمع لأتوسَّل النجاة. فإذا بهم لم تزل وجوههم مشدوهة، لكنهم أرخوا سراويلهم وكشفوا عن عوراتهم.. عيونهم تغوص برغبة محمومة.. أنفاسهم تغرق برغبة محمومة.

يدلكون آليتهم ويتحسَّسون أعضاءهم. نهضت معلمتي نافضةً الكراريس بوجه محتقن وفي يدها اليسرىٰ سوط واليمنىٰ سكين محتد. ولوحت بالسوط فتوقف كرنفال العهر برهة ثم توبعت فاعلياته. وصاح الجمهور "ختان.. ختان" وهم يمارسون العهر مع آليتهم..

قفزت علىٰ السلام الضخمة واندفعت علىٰ الدرجات حتىٰ إذا خرجت من باب المسرح تعثرت ووقعت علىٰ ذراعي وشعرت بانسداد حلقي فسعلت عدة مرات حتىٰ تنفست. نهضت وفررت إلىٰ أروقة مدرستي القديمة لأصل إلىٰ دهاليز وممرات بيضاء؛ أجري وأحسب من يجري ورائي يقترب مني، أخشىٰ التوقف ولا أجرؤ علىٰ النظر خلفي. الممرات لا تنتهي إلا بممرات أخرىٰ علىٰ الجانبين وكأني فأر في متاهة.

الضوء الأبيض يغشي عيني. جلد جفني متخشب أكافح لإسدالهما سدىٰ، كأن أصابع تسحبهما لأعلىٰ فتمنع عينيَّ من الانغلاق.

خبت الأشعة البيضاء شيئًا فشيئًا. وأبصرت في آخر الممر بابًا مواربًا لغرفة ذات شباك زجاجي.. رأيت ظهر الرجل الذي يرتدي البالطو الأبيض يقف أمامه (حنا) وشرع الرجل بالقول:

- الدواء الموصوف الذي أحضرته منقوص منه نصف علبة المنوم وحبتين من المهدئ. إن كانت المريضة قد تناولت المزيج خلال ساعتين فسيتفاعل مع جسدها كسُمٍّ. وأحسب هذا ما حدث. لقد غسلنا المعدة ونقلنا لها الدم الذي نزفته بسبب جرح يديها ولكنك في الغالب أحضرتها متأخرًا وقد امتص مخها السُّمَّ وتأثر به. لذلك أخشى أنها في غيبوبة كما أكد فحص البؤبؤتين منذ قليل. العلم عند الله متى تفيق.

....

ووجئت الباب.

....

إنني الآن أمام جنينة الجوافة. هناك تحت شجرةٍ جلس أبي وأمي يداعبان طفلةً تشبهني ترتدي مريلتي الصفراء ذات الكرانيش، تربط شعرها الأسود بأشرطةٍ ورديةٍ. تبتعد الشقية عنهما منطلقةً بين الشجيرات. تشب لتصل إلى ثمرة الجوافة متشبثةً بغصن متدلٍّ؛

قطفتها فاختل توازنها ووقعت في البركة الطينية. أظن أنها ستنهض باكيةً لأن قاع البركة ضحل. لا تَقُم. أسرع إليها لكنني أصطدم بحائط زجاجي. أصرخ مناديةً أمي وأبي دون رد. أطرق وأخبط على الحائط بكلتا يديَّ. أحاول تحطيم الزجاج بكوعي وركبتي دون جدوى.. أضرب بقبضة يدي.. أضرب.. أضرب وأصرخ.. حتى تؤلمني يدي من الضرب وتؤلمني حنجرتي من الصراخ...

وجزعت نفسي من صوت مهيب يردد: "أولستِ تؤثرين الموت؟"

فانكمشت الروح داخل الروح.. وبكيت حتى غشيت.)

وقال (حنا):

"أصلِّي من أجلكِ (زينب) باسم يسوع وباسم محمد الرسول. أن تستعيدي عافيتكِ، وتنتصبين بجانبي مجددًا هاتفةً «كفاية»". ونرفع صورتي (مجدي) و(يحيى) في وجه الطغاة. وأن تجدين الحب الذي تبحثين عنه أبدًا وتنجبين طفلًا ينادي "خاله (حنا)" كما أردتِ. ألعب معه لليمون أن يدوخنا وللهواء أن يحملنا حتى نحلق خلف الغيوم.

صلاة (حنا) لـجّ حنان أورفت غابة سحرية بداخلي.. أشجارها كغدائر أمي، مألوفة وغير متناهية.

قلت: "سأسافر بعيدًا إلى بلاد مغبونة المطر".

قال: "وتأخذين يدي وترقصين معي الصالصا عند الديمة؟".

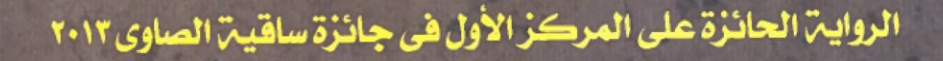
_ "ولما تصفو السماء سأفترش الأوراق الصفراء المحمرة، أوراق شجرات الجوافة وأشاهد ألف نجمة في السماء.. وأدَّعي أنني أمتلك ألف لؤلؤة".

وأنشد صديقي لحنًا صبيَّ الحزن، منعش كسديم من ندىً على ضفاف جدول يشق غابة خضراء.

أرجوزة في مدار محرابكِ يا مريم
تضيء الشمعَ، تزيل ألما
وحور باسمات تطفن بدربكِ
ويأتي الفجر لينحر ندما

تمت





إذا غفوت أحلم أنني أخترق الجدران السميكة وأعبر إلى حيث تطأ قدمي على الرمال وأرى المياة الزرقاء الواسعة. أمشي بمحاذاة الشاطئ دون أن تلامس قدماي مياه الأمواج من تحتي.. ينادي عليَّ مناد، ألتفت.. رجل بلباس الصيادين ذى القبعة البيضاء، يقف على حافة البحيرة ممسكًا بطرف حبل سميك ويشد مركبا صغيرا.. يشير إليَّ أن آتيه.

كم من وجوه نقابلها تخفي خلف ابتسامات عذبة مرارة تجربة داخل زنزانة وجوه تتوق لأن تحكي، تجتر الذكرى وتشتاق إلى لحظات الوحدة المعتمة في صخب وطن يجهض أحلام أبنائه. هل لابد أن ننظر إلى الوطن من نوافذ الزنازين كي تتكشف لنا أبعادا لم نرها فيه/ أم أن التعميد ببرودة الأقبية بات قربان الهوية ؟؟ تطرح ايمان عاطف أسئلة في شقاء التجربة وفي ثقل أعوام من التيه حملتها البطلة: زينب على كاهلها. أرواح معلقة على جدار. جدارية بلون دفء القرى ورائحة الوطن.

رواقد للنشر والتوزيع